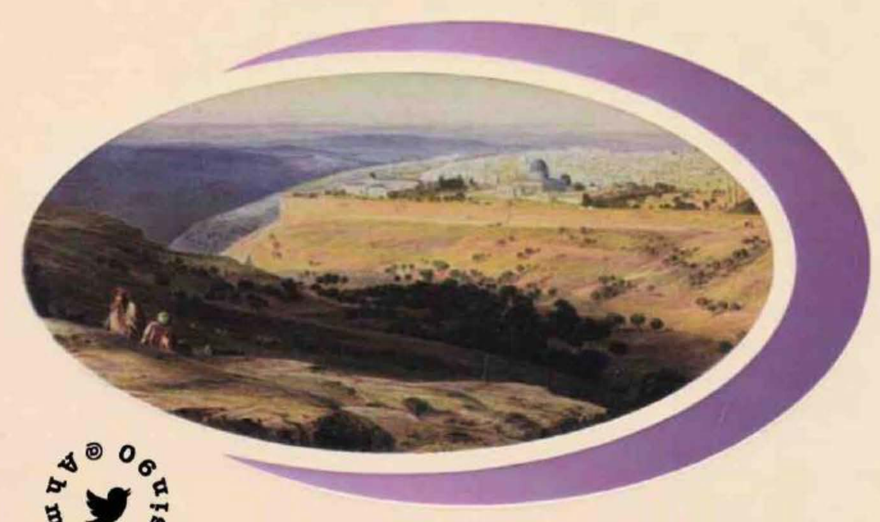
المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي



الدكتور عماد الدين خليل



(٣)

المقاومة الإسلامية
للغزو الصليبي

المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي

عصر ولاة السلاجقة في الموصل

٤٨٩ ـــ ٥٢١ هـــ / ١٠٩٥ ـــ ١١٢٧ م

د. عماد الدين خليل





المقدمة

تاريخ الموصل حلقات يتلو بعضها بعضاً، منها ما تميَّز بالنشاط السياسيّ أو الإبداع الحضاري أو كليهما معاً، ومنها ما لم يتميَّز بشيء، سواءً كان نشاطاً سياسياً أو إبداعاً حضارياً.. منها ما كانت الموصل تتمتع فيه بارتباط مباشر بجسد الدولة الإسلامية: راشدية أو أموية أو عباسية أو عثمانية، ومنها ما كانت تمارس فيه ما يسمَّى اليوم بالحكم الذاتي أو الاستقلال المحلّي. وتارة ثالثة كانت تنفصل عن مركز الدولة انفصالاً تاماً؛ حيث تقوم فيها إمارات مستقلَّة تدوم عقوداً من الزمن.

وقد تدفعها الظروف والأوضاع إلى إعلان عدائها للمركز، والدخول في صراع طويل الأمد معه، في تلك الفترات التي يسود فيها الأمن النسبي حدود بلاد الإسلام.. فيدفع الترف والبطر والسلم، تلك البلاد إلى التمزّق والتبعثر والتقاتل فيما بينها، كلٌّ يريد مزيداً من الاستقلال، ومزيداً من الأراضي والمواقع والحصون.

أما في الفترات التي يدهم فيها ثغورَ المسلمين عدوٌّ جديد، فإن ثقل المقاومة والصراع يعود لينصبَّ في أماكنه الطبيعية على الحدود والمناطق التي دهمت.. هناك، حيث الدفاع عن حرية العقيدة والأرض الإسلامية، وحيث حماية الوجود الإسلامي من التشتت والفناء.

ولقد مرت الموصل بهذه الأدوار جميعاً.. قاتلت في الداخل، وجاهدت في الخارج، وفرق كبير بين القتال والجهاد. وكانت مرحلة (ولاة السلاجقة) التي نتكلم عنها في هذا البحث، كما كانت الفترة التي أعقبتها، والتي تكلَّمنا عن نشوئها وتأسيسها على يد عماد الدين زنكي في البحث الموسوم باسمه.. كانت هذه الفترة مثلاً واقعياً مشهوداً على هذا الدور المزدوج الذي كانت الموصل تمارسه على كلتا الجبهتين.

إن التمزُّق الذي أصاب جسد الدولة الإسلامية بعد مرور عقودٍ فحسب على نجاح العباسيِّين في تأسيس دولتهم، وظهور عدد من الإمارات والمدن المستقلة، في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، رغم أنه يعدُّ بحدِّ ذاته ظاهرةً سلبيةً وعَرَضاً مرضيّاً خطيراً يدعو للتأمل والنقد، إلا أن أمة متحضِّرةً كالأمة الإسلامية في ذلك العصر، كان بإمكانها أن تحوّل هذه الظاهرة، التي تبدو حتميةً مقفلةً وألَّا مناص مما قاله الله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ...﴾ تحولها إلى (حركة) إيجابيةٍ مثمرةٍ في مجالَي السياسة والحضارة... حيث صرنا نجد عدداً من الدويلات تنشأ حيوية قوية، لكي ترد على العدوان الذي كان يتهدَّد حدود الإسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال، في وقت كان مركز الدولة الإسلامية فيه يعاني مرضاً وشيخوخةً زمنيةً، وإرهاقاً وغياباً مكانياً، لم تتح له أن يقوم بالتصدي الفعَّال لهذه الأخطار.. كما صرنا نجد عدداً من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حدَّة التنافس الحضاري بين إمارات المسلمين، ولكي تعمِّق مجرى الحضارة الإسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات، الأمر الذي دفع تلك الحضارة خطوات واسعة عريضة إلى الأمام... ثم إننا صرنا نجد عدداً من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين، ويصوغ تنظيمات عسكريةً وعقيديةً وسياسيةً لتحقيق هذا الهدف العظيم الذي لولاه لما قامت للإسلام قائمةٌ. ولو أن تمزّقاً جغرافياً وسياسياً كهذا أصاب أمَّةً منحلَّة متعبة

مكدودةً، لأطاح بها وبمقدَّراتها، ولقدَّمها لقيماتٍ سائغةً لأولئك المتربِّصين بها على الحدود، وشواهد التاريخ كثيرةٌ كثيرة في هذا المجال.

هذا هو القانون الحضاري الذي لا يخطئ: إن أمة تتميَّز بالتحضُّر والحيوية ـ وهما بلا شك أمران متلازمان ـ بمقدورها أن تحيل كل ظواهر الهدم في جسد الأمة إلى قيم إنشاءٍ وإبداعٍ وبناءٍ، لأن الإنسان هو الذي يتحكَّم في صياغة الظروف الخارجية، إن امتلك زمام نفسه وسعى دوماً إلى ممارسة عملية التغيير الذاتي التي أعلن عنها القرآن الكريم في قانونه الثابت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾... إن الفيضانات الخطيرة، قوة هائلة مدمِّرة، ولكن (الإنسان) هو الذي يحيلها إلى أداة تنميةٍ واستثمارٍ، أو يتركها تغرق المزارع والحقول، وتكتسح المواقع والقرى.. وإنه لتحدٍّ خطيرٍ يطرحه الله سبحانه لكي يستثير همة الإنسان وحيويته وفاعليَّته، على نطاق (الطبيعة) حيث الصواعق والزلازل والفيضانات والأعاصير... وعلى نطاق (التاريخ) حيث النشوء والسقوط، والسلم والحرب، والتحضُّر والهمجية، يلفُّها جميعاً قانون الله الثابت: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ...﴾!!

هكذا استطاع (المسلم) أن ينطلق من نقطة الضعف هذه، حيث تُمَزِّق الدولة الواحدة إلى مدنٍ وأقاليمَ ودويلاتٍ، إلى آفاق القوة والتحضُّر والإبداع.. وبدلاً من أن يستسلم للظاهرة ويجلس قابعاً في حدود إمارته المنشقة، نجده يقف متحفِّزاً للحركة من أجل عالم الإسلام كله، بمجرَّد أن تتاح له القيادة الصالحة المرنة الذكية المخلصة المجاهدة التي تعرف كيف توجِّه الحركة إلى هدفها المطلوب..

هكذا لعب (الأدارسة) دورهم في المغرب، في مد الإسلام إلى قلب القارة السوداء عبر مسالكها الشمالية الغربية، وكانوا أول من مهَّد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة إلى الإسلام في تلك القارة..

وهكذا لعب (الأغالبة) في تونس دورهم في صدِّ خطر البيزنطيّين تجاه السواحل الإفريقية، وفي تحويل موقف الدفاع الذي اتخذته هذه المنطقة إلى هجومٍ استمر عقوداً طويلةً من الزمن، واستطاع أن يجلي بواسطته قوات البيزنطيّين إلى داخل القارة الأوربية، وأن يكتسح جزرهم في البحر المتوسط لكي لا يلبث أن يحيل هذا البحر العظيم إلى بحيرة إسلامية، وينشئ في جزرها ومرافئها حضارة ثرَّة كانت إحدى الجسور التي انتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب...

وهكذا لعب (الطولونيون) في مصر والشام دورهم في إيقاف محاولات البيزنطيّين الارتدادية صوب بلاد الشام..

وهكذا لعب (الحمدانيون) في حلب دورهم المشهور في صد تلك المحاولات نفسها، وهي على أعنف ما تكون، وتمكنوا من كسر حدتها...

وهكذا لعب (السامانيون) فيما وراء النهر دورهم في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في أقاليم التركمان الوثنية الشاسعة الممتدة حتى أطراف الصين، وفي تحويل هذه القوى البدوية التي لا تعرف السلم والاستقرار إلى قوةٍ بشريةٍ مسلمةٍ مثقفةٍ مستقرةٍ، مارست دورها ـ فيما بعد ـ على طريق الإسلام..

وهكذا لعب (الغزنويون) و(الغوريون) من بعدهم، في شمال الهند، إزاء الهنود الوثنيين نفس الدور الذي لعبه رفاقهم السامانيون من قبل إزاء الأتراك..

وهكذا أيضاً ظهرت دولتا (المرابطين) و(الموحِّدين) في المغرب لكي تعيدا للجهاد الإسلامي مفهومه الثائر العميق، ولكي تنشئا التنظيم الذي يكفل تحقيق هذا الهدف، ولكي (تتحرك) هذه التنظيمات للدفاع في الوقت المناسب عن مقدرات الإسلام والمسلمين في وقت كانت القوى الصليبية تتحرك فيه لتوجيه ضربة ماحقة للجناح الغربي من عالم الإسلام...

ثم إذا ما التفتنا إلى (الموصل) في الفترة التي ينصب عليها بحثنا هذا، وجدناها تسهم هي الأخرى، سواءً في عهد (ولاة السلاجقة) أم في عهد (الأتابكة)، إسهاماً قيادياً مباشراً وخطيراً ضد الغزو الصليبي في حملته الأولى على الجناح الشرقي لعالم الإسلام !!

إن حضارة الإسلام، كما أكد كثير من المستشرقين والمؤرخين هي حضارة (الوحدة والتنوُّع)، ولقد انعكست هذه السمة الأصيلة على ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الإسلام.. فصرنا نجد تنوّعاً في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدةً وتجانساً وتعاطفاً في العطاء الحضاري، وفي الأساليب والأهداف الكبرى...

وفيما عدا حالات معدودة لهذه القاعدة الشاملة، حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنّت مبادئ وعقائديات باطنية إباحية هدامة، ذات جذور فارسية ويهودية، غريبة عن عقيدة الإسلام وتصوُّره وقِيَمه، دويلات لَمَّت شعث مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحة الإسلام وانكشافه وحريته.. دويلات مارست قواها الذاتية، لا في الدفاع عن أرض الإسلام وعقيدته ووجوده، وإنما ضد أرض الإسلام وعقيدته ووجوده[1]؛ بل إن بعضها سعى إلى عقد محالفات ومواثيق مع

---

(١) رغم دفاع بندلي جوزي المستميت عن الحركات الباطنية والإسماعيلية، وتمجيده لدولة قرامطة البحرين باعتبارها جمهورية شيوعية، فإنه لم يستطع أن يطمس كل وقائع التاريخ التي تدين هذه الحركات، والتي سعى إلى التشكيك بصحتها باعتبارها صادرة عن أعداء القرامطة... وأرغم على سرد تفاصيل مذبحة مكة عام ٣١٧ هـ التي أثبتتها جلُّ التواريخ، حيث قال: «لم يكد سليمان أبو طاهر الجنابي زعيم قرامطة البحرين يدخل عاصمة بلاده، بعد استيلائه على البصرة عام ٣١٥هـ، حتى أخذ يستعدُّ بأمر، كما يظهر لنا، من (صاحب الزمان) لغزوة بعيدةٍ لم يقم عليها قبله أحد ممن دخل في دين النبي العربي، فلم يُطْلع على عزمه وغايته أحداً إلى أن تمَّت معدات السفر، فترك عاصمة بلاده وخرج يريد بيت الله الحرام ليضرب الإسلام في صميم قلبه، ويقضي عليه في منشئه إن استطاع إلى ذلك سبيلاً.

=

الأعداء الخارجيين المتربّصين على الحدود والثغور[١]. فيما عدا حالات

= ولعلَّ قصده من هذه الغارة كان أن يقضي أيضاً على هيبة خلفاء بغداد ونفوذهم السياسي والأدبي في دار الإسلام . ودخلت سنة ٣١٧هـ = ٩٣٠م وليس فيها ما يدعو إلى القلق، فأخذت ألوف الحجاج ترد إلى بيت الله آمنة لا هم لهم إلّا قضاء شعائر الحج والعودة إلى بلادهم سالمين مطمئنين . لكنهم لم يكادوا يتمُّون هذه الشعائر حتى جاءتهم الأخبار أن أبا طاهر زاحف على مكة في جيش مؤلف من ٦٠٠ فارس و٩٠٠ رجل .. وبعد أيام دخلوا مكة وأخذوا يقتلون أهاليها ومن كان فيها من الحجاج من رجال ونساء (وهم متعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم، وفرش بهم المسجد وما يليه، وقتل في سكة مكة وشعابها من أهل خراسان والمغاربة وغيرهم زهاء ثلاثين ألفاً، وسبى من النساء والصبيان مثل ذلك، وأقام بمكة ستة أيام ولم يقف أحد تلك السنة بعرفة ولا في نسكها) . وكان أشد الناس قساوة وأقلهم رحمة أبو طاهر نفسه؛ فكان ينتقل من مكان إلى آخر في الكعبة ومكة، ومن جماعة إلى جماعة أخرى وهو يدعو أصحابه وقد ثملوا بسورة الفتح وما غنموه من المال والحليّ، أن أجهِزوا (على الكفار وعبدة الأحجار)، ودكُّوا أركان الكعبة واقتلِعوا الحجر الأسود حتى لا يبقى منه أثر .. واستمر أبو طاهر وأصحابه يعملون السيوف في أهالي مكة وحجاج بيت الله، وينهبون أموالهم ويأتون من الأفعال ما تقشعر له الأبدان، وأخذوا كل ما وصلت إليه أيديهم من الحليّ الثمينة والتحف القديمة التي كانت معلَّقة على جدران الكعبة .. ونقلها أبوطاهر إلى عاصمة بلاده، أو كسرها ثم ذراها في الهواء حتى لا يبقى منها أثر .. وكان في جملة مانهبه القرامطة من مكة الحجر الأسود الذي ظلَّ مهجوراً في الإحساء إلى أن ردُّوه سنة ٣٣٩هـ = ٩٥٠م بأمر من المنصور الفاطمي .. وخرج أبو طاهر وجماعته من مكة وهم ينشدون:

فلو كان هذا البيت لله ربنا ... لصبَّ علينا النار من فوقنا صبًا
لأنا حججنا حجة جاهلية ... محلَّلة لم تبق شرقاً ولا غربا
وإنا تركنا بين زمزم والصفا ... جنائز لا تبغي سوى ربها ربا»

انظر (من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) ص١٨١-١٨٦.

(١) يقول بندلي جوزي، محامي الحركات الهدَّامة الشهير، في كتابه آنف الذكر: «لدينا من الأدلة ما يكفي لأن نفرض أن بابك (الخرمي) وأتباعه بدؤوا يفكرون بالخروج على خلفاء بغداد ويهيئون للثورة أسبابها منذ أمد بعيد، وأنهم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة للشروع في العمل.. نستدل على ذلك من المخابرات السرية بين بابك وإمبراطور بيزنطة تيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) وسلفه؛ التي يرجح أنها ابتدأت قبل الثورة . فقد ذكر بعض المؤرخين أن بابك ذهب بنفسه إلى عاصمة الروم، أو إلى الحدود البيزنطية الجنوبية، ليدعو إمبراطورها =

كهذه، حيث التشكيلات السياسية الإسماعيلية بمختلف أجنحتها، والتي لا زالت بحاجة ماسة إلى دراسات أصيلة لتفحص دوافع نشوء الحركات المذهبيَّة التي أقامتها، وأهدافها، وارتباطاتها السرية مع الحركات المجوسية والصليبية واليهودية، دراسات تنظر بعمق وموضوعيَّة إلى الأرضيَّة الاجتماعية الظالمة التي ألجأت الكثير من البائسين والمظلومين إلى الانضواء إليها، ولكنها لا تغفل في الوقت ذاته عن تركيب (القيادات) وعلاقاتها

= إلى الاشتراك معه في حرب عامة يعلنونها على عدوهم المشترك . لكنه يظهر لنا أنه لا صحة لهذا الخبر؛ لأنه يصعب علينا أن نصدق أن بابك زار بيزنطة أيام الحرب التي نرجح أنها نشبت في صيف سنة ٨١٧م، أما أنه زارها قبل إعلان الحرب فلا دليل على ذلك. إلّا أنه يمكننا أن نقدّر، استناداً إلى الحوادث التي سنأتي على ذكرها بعد ذلك، أن بابك، بعد أن عزم على الخروج على خليفة بغداد، أطلع بواسطة أحد رسله صديقه وحليفه الطبيعي، إمبراطور الروم على عزمه والغرض من خروجه، وطلب إليه أن يمده بجيوشه . أو أن ينضم إليه بنفسه في هذه الحرب العامة التي كان يُرجى منها خير لهما جميعاً إن هي انتهت بسقوط عدوهما الألدّ. على كل حال لا ريب في أن بابك كان يستطيع أن يعول في حروبه مع خلفاء بغداد على مساعدة البيزنطيين. وبالعكس فنحن نعلم أنه لما ساءت أمور بابك بعد عشرين سنة صرفها في مقاومة أعظم جيش وأضخم دولة في ذلك العصر، برز لمساعدته إمبراطور الروم وحاول بمناوراته على الحدود العربية (العواصم) أن يصرف قسماً كبيراً من جيش الخليفة المرابط في أذربيجان عن بابك . ونعلم أيضاً أن فئة كبيرة من أصحاب بابك حاربت سنة ٨٣١م تحت قيادة رجل إيراني يعرف بـ(ثيوفوب) في جانب البيزنطيين، وأن قسماً كبيراً من جيش بابك اجتاز الحدود البيزنطية بعد ما أصاب بابك من الفشل، ونزل في أرض الروم على الرحب والسعة وهناك تنصَّر. ويستدل من هنا أن صداقةً قديمةً قويةً كانت تربط بين بابك وإمبراطور الروم إن لم تكن معاهدة حربية سرية». ويمضي بندلي جوزي إلى القول بأن مما زاد في حرج موقف الخلافة العباسية: «أنه كان بين المتآمرين بعض زعماء العرب ممن أعمت المصالح الشخصية أو العائلية قلوبهم وأنستهم ـ أو جعلتهم يتناسون ـ أن الغاية الكبرى من مؤامرة بابك هي سحق السلطة العربية في تلك البلاد والقضاء على الإسلام وأهله... ولقد كان من أهم الظروف المناسبة التي ساعدت بابك على إعلان حربه: أن الجيش الرومي أصبح، بعد أن احتل أرمينية، مجاوراً لبلاد بابك، فصار في وسعه أن يمدَّه برجاله ونصائحه . ولعل هذا الأمر هو الذي حمل إمبراطور الروم على الزحف على أرمينية واحتلالها ..» (الحركات الفكرية، ص٨٠-٨٢، ٨٥، ٨٧).

وارتباطاتها، الأمر الذي قادها إلى الوقوف، لابوجه السلطة كجهاز سياسي متعسّف، ولكن بوجه الإسلام كعقيدة وتنظيم، وإلى الصراع، لا مع بني العباس، كقيادةٍ عربيةٍ مستأثرة، ولكن مع الوجود العربي نفسه!!

وتواريخ (المدن) و(الإمارات) عرفها مؤرّخونا منذ عهود مبكرة في مجال البحث التاريخي. وقد نشأت أول ما نشأت ـ كما يؤكد دارسو نشأة علم التاريخ عند المسلمين ـ بدافع من النقاش المستمر الذي شهدته مدن العالم الإسلامي، ضمن إطار الدولة الواحدة، حيث أخذ المؤرخون يعدُّون ويستعرضون كل مناقب ومزايا المدينة التي عاش فيها ونهل من معارفها. وراح المثقف المسلم يقرأ عن مناقب بغداد أو البصرة أو الكوفة أو دمشق... وهكذا... ورغم بعض المبالغات التي مارسها أولئك المؤرخون في كتاباتهم، فقد جاءت تواريخهم تلك معبرة عن مدى الحيوية والمرونة التي تميَّزت بها الحياة الإسلامية، ومدى التنافس الإيجابي الذي كان يشحذ بطبيعة الحال عقول الناس وأفئدتهم إلى مزيد من العطاء والإنتاج والتطور.. هذا فضلاً عن أن تلك التواريخ قدمت لنا مصادر على درجة كبيرة من الأهمية، للمؤرخ الحديث، لما تضمنته من جزئيات وتفاصيل وجوانب حضارية لا يمكن بحال أن نعثر على عشر معشارها في التواريخ العامة الشاملة.

وفي المرحلة التالية، عندما ضعف مركز الدولة، وأخذت المدن والأقاليم تنفصل وتحصل على استقلال، كاملٍ أو جزئيٍّ، في سياستها وإدارتها، ازدادت تلك التواريخ المحلية عدداً واتساعاً... وازداد التنافس بين مؤرخي كل بلد عمقاً وبعداً.. وأخذت تنثال على المكتبات مؤلفات خاصة بمدن وأقاليم وإمارات تنتشر على أراض شاسعةٍ تحدها من الشرق بلاد الصين ومن الغرب بحر الظلمات. وما هذه (التآليف) في الحقيقة إلَّا صورة من صور (الإيجابية) التي تميَّزت بها ظاهرة التنوع التي رافقت نشوء

الإمارات والدويلات الإسلامية.. فلو أن كل مؤرخ حرص على تدوين تاريخ مدينته، أو الإمارة التي يعيش فيها، لغطت أبحاثهم معظم مساحات تاريخنا، ولوجد الباحث الحديث أمام عينه سيلاً من المصادر التي تضم الكثير الكثير مما لا يمكن أن يعثر عليه ـ كما ذكرنا ـ في التواريخ العامة. فلا ريب أن الذي يكتب عن مساحة مكانية وزمانية محدَّدة، يرتبط بها بأكثر من رباط، يكون أكثر قدرة على الإلمام بالتفاصيل والجزئيات من ذلك الذي يكتب عن تواريخ لا يحدها مكان محدود ولا زمان قريب. ونحن إذا نظرنا ـ فقط ـ إلى التواريخ المحلّية في الفترة التي ينصبُّ عليها هذا البحث لطالعتنا أسماء مؤلفاتٍ عديدة[١].

وليس لباحث أن ينكر ما في بعض هذه التواريخ من (إقليمية) ومحلّية نجد ملامحها السيئة واضحةً في مظاهر المبالغة والتحيُّز وعدم التزام الموضوعية[٢].. لكن الفوائد التي جناها ويجنيها (البحث التاريخي) من هذه المؤلفات، تغطي ولا شك على مآخذ كهذه يمكن للمؤرخ الحديث أن يستبعدها ويرفض الأخذ بها، سيما وقد توفَّرت أمامه معلومات متكاملة تتيح له المقارنة والترجيح، والرفض أو التسليم. هذا فضلاً عن أن أبحاثاً (محدَّدة) كهذه تقدّم لنا نماذج كثيرة عن التطور الذي طرأ على أسلوب البحث التاريخي لدى المسلمين، حيث أخذوا يتَّجهون من كتابة التواريخ العامة، صوب أبحاث تتناول جوانب محدَّدة من تاريخ الإسلام السياسي والحضاري، وتنصبُّ على مدينة أو إقليم أو إمارةٍ محدودةٍ بحدودٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ.. وهو نفس المنحى الذي تنحوهُ الأبحاث الأكاديمية الحديثة التي

---

(١) انظر موضوع (تحليل المصادر) في كل من: (عماد الدين زنكي)، و(الإمارات الأرتقية) للمؤلف.

(٢) انظر ـ على سبيل المثال ـ كتاب: (الباهر) الذي ألفه ابن الأثير عن أتابكة الموصل وأهداه لأحد أمرائهم، فإنك ستجد المؤرخ يتحيَّز ويبالغ في عدد من المواضع، سيما لدى تعرُّضه للصراع الذي نشب بين أولئك الأتابكة والأيوبيين في مصر والشام. وانظر الهامش السابق.

تسعى ـ قدر الإمكان ـ إلى اختيار تلك المواضيع التاريخية المحدودة، والابتعاد عن تلك التي تضيِّع الباحث بامتدادها الزماني أو المكاني، وتفقده ـ بالتالي ـ القدرة على التركيز والاستقصاء والإلمام والتحليل.

والبحث الذي بين أيدينا يشمل فترة من الزمن تزيد على ثلاثين عاماً؛ تبدأ بدخول كربوقا الموصل والياً من قبل السلاجقة عام ٤٨٩ هـ = ١٠٩٥ م بعد سقوط آخر أمير عقيلي، وتنتهي بتأسيس أتابكية الموصل على يد عماد الدين زنكي عام ٥٢١هـ = ١١٢٧م، وقد حكم الموصل طيلة هذه الفترة عدد من الولاة الذين عينهم السلاجقة ليكونوا نواباً عنهم في إدارة شؤون (أقاليم الموصل والجزيرة)، وليتولوا ـ في الوقت نفسه ـ أعباء الجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا يقرعون ـ آنذاك ـ أبواب العراق الشمالية الغربية. وقد تأرجح موقف هؤلاء الولاة من السلاجقة بين ارتباطٍ مباشرٍ بهم وتنفيذ دقيق لأوامرهم وتوجيهاتهم، وبين رفض للإذعان لهم، وتمنع عن الطاعة والانتماء الكامل إليهم.. إلا أن خيطاً واحداً لم ينقطع طيلة هذه الفترة، ذلك هو الخيط الرسمي الذي عرفته معظم الإمارات والمدن المستقلة والذي يشمل الخطبة للخليفة والسلطان، وضرب اسميهما على النقود.

ويتميَّز تاريخ الموصل في فترة الولاة هذه، بميزتين أساسيتين:

أولاهما: إسهامها في أزمات ومشاكل الصراع الداخلي الذي شهدته الدول السلجوقية في العراق والشام وبلاد فارس والأناضول وخراسان، ذلك الصراع الذي انبثق في أعقاب وفاة السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ = ١٠٧٢ ـ ١٠٩٢م) آخر سلاطين السلاجقة الثلاثة الأقوياء، بسبب رغبة خلفائه في الاستئثار بالحكم ووضع أيديهم على أكبر قدر من المدن والمواقع والأقاليم.. وقد استمر هذا الصراع فيما بعد حتى نهاية السلاجقة في المناطق المذكورة. وقد أدلى ولاة الموصل بدَلْوِهم في غمرات هذا الصراع، تارةً إلى جانب هذا السلطان والملك السلجوقي، وتارة إلى جانب

ذاك. الأمر الذي عرَّض الإقليم لكثير من المشاكل الداخلية، وأفقده الكثير من الطاقات البشرية والعسكرية والاقتصادية، هذا فضلاً عن المشاكل والحروب (المحلِّية) التي شهدتها الموصل في هذه الفترة، والتي كانت تشتعل بين الحين والآخر نتيجة لمطامع الأمراء المحليِّين، ورغبتهم في الاستحواذ والاستئثار. وقد جاء القسم الأول من هذا البحث محاولة لتتبُّع أحداث هذا الصراع بكل أطرافه، والنتائج التي تمخَّض عنها.

أما **السمة الثانية** لتاريخ الموصل في هذه الفترة: **فهي** الدور الكبير الذي لعبه بعض ولاتها في ميدان الجهاد ضد الصليبيِّين، حيث تمكنوا من توجيه ضربات عنيفة ضد الوجود الصليبي في الجزيرة والشام، في فجر حملتهم الأولى، عبر سلسلة من المعارك، وبخاصة معركة البليخ عام ٤٩٧هـ ـ ١١٠٣م التي قادها جكرمش وحليفه الأرتقي سقمان، وهجمات مودود الثلاث ٥٠٣هـ = ١١٠٩م، ٥٠٥هـ، ٥٠٧هـ، تلك التي توغل في آخرها إلى قلب فلسطين، ووجَّه وحليفه طغتكين حاكم دمشق، ضرباتٍ متلاحقةً للصليبيِّين هناك.

ثم كانت أهم الانتصارات التي حققها هؤلاء الولاة ضد الصليبيِّين، قيام البرسقي عام ٥١٨هـ = ١١٢٤م بضم حلب إلى ولايته وتوحيدها مع الموصل، فقضى بذلك على الأخطار الصليبية المحققة التي كانت تحدق بها، وأتاح للموصل ـ في الوقت نفسه ـ أن تزيد من فعاليتها في مقاومة الغزو الصليبي، نظراً لما كانت تتمتَّع به حلب من إمكانيات اقتصادية وموقع استراتيجي هيَّأ لعماد الدين زنكي وابنه نور الدين، فيما بعد، أن يلعبا دوراً حاسماً ضد الصليبيين في المنطقة. وقد قاد ولاة الموصل بأنفسهم حركة الجهاد في تلك المرحلة حيناً، وانضموا حيناً آخر إلى قيادات أعلى اختارها السلاجقة في بغداد وأصفهان. وتارة ثالثة كانوا يدخلون في محالفات متكافئة مع بعض الأمراء المسلمين من أجل العمل المشترك ضد الأعداء. وقد رافق

هذا النشاط كله، بعض (المواقف) السلبية من عدد من ولاة الموصل كانت لها ـ كما سنرى ـ تأثيرات خطيرة على سير حركة الجهاد ضد الصليبيّين. وقد جاء القسم الثاني من هذا البحث تحليلاً واستعراضاً لدور ولاة الموصل في أحداث الصراع المذكور.

إن تاريخ الموصل في عهد ولاة السلاجقة، حلقة من تاريخ هذه المدينة لم تبحث لحدِّ الآن. هذا في الوقت الذي بحثت فيه فترات أخرى، سابقةً ولاحقةً، بسبب قيام إمارات مستقلة في الموصل استرعت انتباه الباحثين، نظراً للأدوار السياسية أو الحضارية التي لعبتها، وربما لكثرة المصادر المتوفرة عن تلك الإمارات.

وهكذا ظهرت أبحاث عن الموصل في عهد الحمدانيين[١]، والعقيليّين[٢]، والزنكيّين (الأتابكة)[٣]؛ فكان لابد من بحث (فترة الانتقال) هذه بين العقيليين والأتابكة، في دراسة مستقلة، كي تكتمل الحلقات. ولعلَّ باحثاً

(١) هناك رسالة ماجستير عن الحمدانيين في الموصل وحلب قدمها الطالب أحمد محمد عدوان إلى جامعة عين شمس، وكتاب الدكتور فيصل السامر عن الحمدانيين بعنوان (الدولة الحمدانية في الموصل وحلب) .

(٢) هناك رسالة ماجستير لخاشع المعاضيدي عن (دولة بني عقيل في الموصل)، قدمت إلى جامعة القاهرة، ونشرت مؤخراً .

(٣) بُحثت هذه الإمارة في ثلاث رسائل للماجستير: (عماد الدين زنكي) مؤسس الإمارة للمؤلف، (دولة الأتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي) لرشيد الجميلي، و(إمارة الموصل في عهد بدر الدين لؤلؤ) لسوادي عبد محمد . كما بُحثت بشكل عام في كتاب سعيد الديوه جي (الموصل في العهد الأتابكي) . وهناك المصدر الذي ألفه ابن الأثير عن هذه الإمارة بعنوان (التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية) . هذا فضلاً عما كتب عن هذه الإمارات الثلاث (الحمدانية، العقيلية، الزنكية) في دوائر المعارف، والمؤلفات التاريخية العامة، سيما تلك التي تناولت الدويلات الإسلامية . وانظر: زامباور (معجم الأنساب والأسرات الحاكمة)؛ ولين بول: طبقات السلاطين The Mohammadan Dynasties المترجم إلى العربية .

آخر يقوم بدراسة عن الموصل في عصورها المتأخّرة: المغول ودولتي الخروف الأسود والأبيض، والعهد العثماني الذي يمكن أن نجد عنه بعض المؤلفات والدراسات المتفرقة، لكي لا يبقى بعد ذلك سوى دراسة استعراضية عامة عن (الموصل في عصور الراشدين والأمويين والعباسيين حتى قيام الحمدانيين)، يمكن أن نجد الكثير من مادتها في المصادر التاريخية القديمة العامة، وفي كتاب الأزدي الهام (تاريخ الموصل) الذي لا زلنا نفتقد ـ للأسف ـ أحد جزأيه... وحينذاك يمكن القول بأن تاريخ الموصل الإسلامية السياسي قد اكتمل عبر جهود عدد من الكتاب والباحثين، سيما وأن جوانب (حضارية) هامة من هذا التاريخ قد تناولها الدارسون في بحوث مستقلة[١]، إلى جانب الفصول الحضارية التي تتضمنها الأبحاث التي أشرنا إليها من قبل.

---

(١) أهم هذه البحوث: كتاب (العملة الإسلامية في العهد الأتابكي) الذي قدمه محمد باقر الحسيني كرسالة للماجستير، وأطروحة عبد الوهاب العدواني عن (الأدب في العصر الزنكي)، وأطروحة أحمد قاسم جمعة عن (محاريب الموصل في العصر الأتابكي)، وأطروحة صلاح العبيدي عن (تحف الموصل المعدنية في العصر العباسي)، وبحوث سعيد الديوه جي العديدة المتعلقة بمساجد الموصل وخططها ومدارسها ومشاهدها وحركتها العلمية، وتحقيقاته لمصنفات كل من ياسين العمري ومحمد أمين العمري وأحمد بن الخياط الموصلي عن تاريخ الموصل وتراجم مشاهيرها . ويمكن من أجل استكمال الإطار الشامل، أن نضيف إلى ذلك كله كل ماكتب ويكتب من تراجم، ودراسات حديثة عن مشاهير الرجال الذين أنجبتهم هذه المدينة على مرّ العصور، أو احتضنتهم ردحاً من الزمن، نذكر منهم على سبيل المثال: آل الشهر زوري الذين ظهر منهم عدد من القضاة تسلّموا مناصبهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وآل الأثير (مجد الدين وعز الدين وضياء الدين) الذين اختص أحدهم بعلوم القرآن والحديث، والآخر بالأدب والكتابة، والثالث (عز الدين) بالتراجم والتاريخ، ويعود إليه الفضل في تأليف أعظم مصنَّف تاريخي بعد الطبري (انظر بحث: ابن الأثير، لعبد القادر طليمات). وهنالك رجال آخرون: ابن جني النحوي، والطغرائي والسري الرفاء الشاعران المشهوران، والخالديان الشاعران المؤرخان، وابن حوقل، والأزدي،

=

ثمة دافع آخر شجعني على كتابة هذا البحث، وهو ضرورة استكمال حلقات (حركة الجهاد الإسلامي) ضد الحملة الصليبية الأولى التي استغرقت ما يزيد عن نصف قرن (٤٨٩ ـ ٥٤٣هـ = ١٠٩٥ ـ ١١٤٣م) والتي كنت قد بحثت أهم حلقاتها في رسالتي (عماد الدين زنكي) الذي قاد حركة الجهاد فيما بين (٥٢١ ـ ٥٤١هـ = ١١٢٧ ـ ١١٤٦م)، و(الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام) التي قاد بعض أمرائها هذه الحركة فيما بين (٥١٣ ـ ٥١٨هـ = ١١١٩ ـ ١١٢٤م)، فكان لا بد من دراسة دور ولاة الموصل الذين قادوا الحركة منذ فجر الغزو الصليبي عام (٤٨٩هـ = ١٠٩٥م حتى ٥٠٨هـ = ١١١٤م) حيث انتقلت القيادة إلى ديار بكر والشام، ثم عادت إلى الموصل من جديد لتلعب دورها القيادي في هذه الحركة على يد واليها السلجوقي آق سنقر البرسقي (٥١٥ ـ ٥٢١هـ = ١١٢١ ـ ١١٢٧م)، الذي استطاع أن يوحِّد حلب مع الموصل عام (٥١٨هـ = ١١٢٤م) بعد أشهر من مقتل القائد الأرتقي العظيم بلك بن بهرام.

وأرجو أن تتاح لي الفرصة في المستقبل لنشر هذه الفصول عن (ولاة الموصل والصليبيون) (الأراتقة والصليبيُّون) (عماد الدين زنكي والصليبيون) في كتاب واحد، لأنها تضم مرحلة من أهم مراحل الصراع الإسلامي ـ

= وأبو تمام الذي تولى الإشراف على بريد الموصل ردحاً من الزمن وتوفي فيها، وبهاء الدين بن شدَّاد كاتب الناصر صلاح الدين، وابن الدهان النحوي، والهروي السائح، وكمال الدين بن يونس الذي برع في الرياضيات والطبيعيات والموسيقى، وابن مودود الموصلي، وابن دانيال أول من ابتكر لعبة خيال الظل المسرحية. وانظر: كتب التراجم وبخاصة (جريدة العصر) للعماد الأصفهاني، و(طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة، و(طبقات الحكماء) للقفطي، و(ذيل الروضتين) لأبي شامة، و(وفيات الأعيان) لابن خلكان، و(ذيوله) المتعددة وغيرها، للاطلاع على العدد الكبير من الأسماء التي لمعت في الموصل على مر العصور في مختلف ميادين العلوم والآداب والفنون. وانظر ـ كذلك ـ: (فهرس مخطوطات الموصل) لداؤد الجلبي، و(فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل) لسالم عبد الرزاق.

الصليبي، وتشكل الصفحات الأولى من كتاب مقروء، خط صفحاته التالية يراع نور الدين محمود والناصر صلاح الدين، ومن بعدهما الظاهر بيبرس وآل قلاوون. حيث تم القضاء على آخر ما تبقى للغزاة في مصر والشام من مواقع وحصون، بعد حملات صليبية متتابعة بلغت التسع عدداً!! ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾!!

الموصل / عماد الدين خليل




القسم الأول

الولاة والقوى الإسلامية

(الصراع الداخلي)

تمهيد

مرَّ العالم الإسلامي خلال الربع الأخير من القرن الخامس الهجري ومعظم القرن السادس بتطورات خطيرة في حياته السياسية والعسكرية والحضارية على حدٍ سواء، وتمتد جذور بعض هذه التطورات إلى بداية القرن الخامس وما قبله؛ حيث فقدت الخلافة العباسية قدرتها العملية على السيطرة، وحيث بدأ الضعف يصيب البويهيين أنفسهم؛ مما ساعد على تبلْوُر مفهوم (الاستقلال الذاتي) للإمارات الإسلامية التي انفصلت عن العاصمة المركزية، وغدا الصراع فيما بينها ـ في كثير من الأحيان ـ بعيداً عن تأثيرات العاصمة بخلافتها العباسية وسلطنتها البويهية، كما ساعد من جهة أخرى على تقدُّم السلاجقة، بقواهم العسكرية المنظمة، من أواسط آسية صوب الغرب، حيث أخذوا يسيطرون بالتدريج على مناطق السلطة البويهية. وإذا كانت هذه السلطة قد أرهقتها المنازعات الداخلية، وإذا كانت الخلافة العباسية قد ضعفت إلى حد كبير سياسياً وأدبياً بحيث غدا أيُّ عهد جديد يبشر بأفق أرحب لآمالها، وإذا كانت فتنة البساسيري تعبر عن انتكاسة جديدة للخلافة العباسية حيث سعى هذا القائد إلى إعلان العراق منطقة نفوذ فاطمية، لذا نجد أن هذه العوامل جميعاً تدفع الخلافة ومؤيديها من سكان بغداد إلى تقبُّل الحكم السلجوقي والترحيب به. ومن ثم كان سقوط البويهيين ـ الذين بلغوا درجة كبيرة من الضعف ـ أمراً يسيراً.

في هذه الفترة ـ إذن ـ كان مركز الثقل في الصراع ـ من الناحية المكانية ـ ينصبُّ على بلاد فارس والعراق. ولكن بمرور الوقت، ونتيجة لتدخل عوامل جديدة تحول مركز الثقل هذا إلى منطقة أخرى غدت طوال العقود التالية تشكِّل منطقة حيوية في تيار الأحداث التاريخية، لا في العالم الإسلامي فحسب، بل

في العالم المسيحي أيضاً، وقد امتدت تأثيرات تلك الأحداث إلى مختلف نواحي الحياة الإنسانية، سياسية كانت أم حضارية، تلك هي منطقة الجزيرة ـ وبضمنها الموصل ـ والشام ومصر. وقد انعكس ذلك في عدد من المؤلفات لكبار مؤرخي الفترة تصف الأحداث والتعقيدات الجديدة في هذه المناطق. وقد ركَّز بعضها أضواءه على مدينة واحدة أو إمارة محلية من هذه المدن والإمارات التي أسهمت في تيار الأحداث ـ في المنطقة ـ إسهاماً كبيراً.

وأول ما نلحظه ـ في هذه المرحلة الجديدة ـ هو الاصطدام الحتمي بين سلطة الفاطميين في الشام وبين السلطة السلجوقية الفاتحة. وفي الوقت الذي أنهكت فيه المنازعات الداخلية، السلطةَ الفاطمية، بحيث غدا التضارب عنيفاً بين الخلافة الفاطمية والوزارة؛ نجد السلاجقة يندفعون بقوة ـ ودون انقسامات بادئ ذي بدء ـ ويفرضون سيطرتهم على معظم بلاد الشام في فترة محدودة من الزمن. وقد أبدى الفاطميون في بداية الأمر مقاومة جادة للحفاظ على بلاد الشام، فأرسل بدر الجمالي أمير جيوش مصر جيشاً لحصار أتسز السلجوقي في دمشق واستنقاذها منه، فاستنجد أتسز بتاج الدولة تتش بن ألب أسلان الذي أقطعه أخوه السلطان ملكشاه: بلاد الشام وما يستولي عليه، فترك تتش حصاره لحلب وأسرع لإنقاذ دمشق، وما أن اقترب منها حتى انسحب الجيش المصري كالمنهزم، وخرج أتسز لاستقبال تتش، فأنكر هذا عليه تأخره للقائه وألقى القبض عليه وقتله عام ٤٧٣هـ، ومن ثم دخل دمشق[١]، وكانت هذه البادرة الأولى للتمزق في القيادة السلجوقية، إلا أن الفاطميين لم يتمكنوا من استغلالها؛ إذ سرعان ما استولى تتش على حلب ـ القاعدة الثانية لبلاد الشام ـ وانطلق من هناك يفرض سيطرته على بلاد الشام واحدةً تلو الأخرى. ولما وصله نبأ موت أخيه ملكشاه عام

(١) ابن الأزرق الفارقي: تاريخ آمد وميافارقين (القسم المنشور) ص ٢٢١، المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جزء ١، قسم ١، ص ٣٤-٣٥.

٤٨٥هـ لم يُعِقْه ذلك عن إتمام توسعه، وغادر الشام باتجاه الجزيرة واستولى على عددٍ كبيرٍ من مدنها ومواقعها[١].

كان لهذا الصراع في المنطقة بين السلاجقة والفاطميين وجهتان: **إحداهما دولية** عامة تمثل طموح القيادة السلجوقية ليس للقضاء على الفاطميين فحسب بل للسيطرة على العالم الإسلامي كله. وقد عبر السلطان ملكشاه عن هذه الوجهة عندما سيَّر أخاه تتش إلى الشام وقرر معه أن يعمل على فتح مصر وبلاد المغرب جميعاً[٢]، إلا أن الانقسامات التي سرعان ما دبَّت في صفوف القيادة السلجوقية إثر وفاة ملكشاه عام ٤٨٥هـ أعاقتها عن تحقيق هذا الهدف الواسع.

أما **الوجهة الأخرى للصراع فهي وجهة محلية** تمثل رد فعل سكان البلاد ضد أمرائهم الموالين للفاطميين؛ ففي عام ٤٧٦هـ ـ على سبيل المثال ـ عزم أهل حران بقيادة قاضيهم ابن جبلة على تسليم حران إلى جنق أحد أمراء التركمان، وأعلنوا العصيان ضد مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل لأنه أسهم بنفسه في محاولة الفاطميين استرداد دمشق. وعندما سمع مسلم نبأ العصيان أسرع بالتوجه إلى حران ورماها بالمجانيق، وتمكن من القضاء على العصيان وذبح القاضي وولديه[٣]. وتوضح لنا هذه الحادثة أيضاً بعداً آخر من أبعاد الصراع في شكله المحلي حيث نجد بعض الأمراء المحليين من جهة أخرى يقومون بمحاولات للضغط على السلاجقة في الشام ومساندة الفاطميين، إلا أنهم لم يحققوا نجاحاً يذكر[٤].

---

(١) الفارقي: ص٢٣٣-٢٣٧.

(٢) العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق ص٦٦، الحسيني: الدولة السلجوقية ص٧٢، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٥/ ١٢٥-١٢٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٥/ ١٣٠، ابن العماد: شذرات الذهب: ٣/ ٣٤٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ٥/ ١١٥.

كانت الدولة السلجوقية طيلة عهد السلطان ملكشاه (٤٦٥ ـ٤٨٥ هـ) تتمتع بالوحدة والخضوع للسلطة المركزية المتمثلة بهذا السلطان الذي كان على جانب كبير من القوة والإخلاص، والذي اعتمد في إدارة دولته على مساعدين أكفاء كنظام الملك الوزير وغيره. ولكن ما أن توفِّي ملكشاه حتى تعرضت الدولة السلجوقية للانقسام الذي استمر حتى سقوطها. وجاء النذير الأول لهذا الانقسام من الشام، إذ أعلن تتش الثورة في نفس العام (٤٨٥هـ) مطالباً بالسلطة لنفسه بدلاً من بركياروق بن ملكشاه. وكانت قد بدرت من تتش بوادر في هذا الاتجاه منذ عهد ملكشاه. ففي عام ٤٨٤هـ قام بمحاصرة طرابلس ونصب عليها المجانيق، فاحتج عليه صاحبها جلال الملك بن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس، فلم يقبل تتش منه ذلك، إلا أن أحد قادة جيشه عصى عليه ولم يشأ الاستمرار في القتال، فقال له تتش: أنت تَبَعٌ لي فكيف تخالفني ؟ فأجابه القائد: أنا تبع لك إلا في عصيان السلطان. فغضب تتش وقفل عائداً إلى دمشق[١].

ومن ثم بدأ تتش تحركه بمجرد وفاة أخيه ملكشاه وانتقال السلطنة إلى ابنه بركياروق. وأنفق الأموال لتحقيق هدفه، وتمكن في بداية الأمر من جمع عدد كبير من أمراء الشام والجزيرة تحت لوائه، وتقدَّم بهم صوب الجزيرة فاستولى على عدد كبير من حصونها ومواقعها، ثم سار إلى الموصل فتصدَّى له إبراهيم بن قريش العقيلي بثلاثين ألفاً من جنده في موقعة (المضيع) التي انتهت بهزيمة إبراهيم ومقتله، ومن ثم أقر تتش أخاه علياً العقيلي على الموصل بعد أن أعلن عن طاعته له[٢].

ولما استتب الأمر لتتش في الشام والجزيرة أرسل إلى الخليفة العباسي

(١) المصدر السابق ٥/ ١٣٢-١٣٣.

(٢) الفارقي: تاريخ ص٢٣٧-٢٤٤، الأصفهاني: آل سلجوق ص٧٧-٧٩، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٧٦-٧٧، الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ٣١٠-٣١١.

في بغداد يطلب منه تقليداً له بالسلطنة، فرد عليه الخليفة: «إنما تصلح للخطبة إذا حصلت الدنيا بحكمك والخزائن التي بأصبهان ـ عاصمة السلاجقة ـ معك، وتكون صاحب الشرق وخراسان، ولم يبق من أولاد أخيك ملكشاه من يخالفك، وأما في هذا الحال فلا سبيل إلى ما التمسته»[(١)].

سار تتش قدماً إلى آذربيجان واستولى على بعض مواقعها، وآنذاك أحس السلطان بركياروق بمدى الخطر الذي يحيق بمنصبه فبادر لوقف زحف عمه تتش، وما أن اقترب الجيشان حتى انسحب عدد من أمراء تتش اعتقاداً منهم بعدم شرعية ثورته ضد السلطان بركياروق، وقال قائلهم: «إنما أطعنا هذا الرجل ـ يعني: تتش ـ لننظر ما يكون من أولاد السلطان ـ ملكشاه ـ، والآن فقد قام ابنه هذا فينبغي أن نكون معه على تتش»، وقد أدى خذلان هؤلاء الأمراء لتتش إلى ضعف جيشه، فاضطر للانسحاب إلى الشام كي يعيد تنظيم قواته من جديد[(٢)]، وفي عام ٤٨٨هـ التقى تتش والسلطان بركياروق ثانية بنواحي الري من بلاد فارس، فانهزم تتش وقتل، واستقرت السلطنة السلجوقية لبركياروق.

وكان لتتش ولدان هما رضوان ودقاق، فتسلم دقاق دمشق، واستولى رضوان على حلب[(٣)]. ومن ثم خرجت هاتان المدينتان عن السيطرة المباشرة للسلطان السلجوقي وأصبحتا تتمتعان بالحكم الذاتي من قِبَل أبناء تتش في بداية الأمر، ثم أتابكتهم فيما بعد، شأنهما شأن عدد كبير من المدن والحصون المنتشرة في الشام والجزيرة.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٣٧-١٣٨.
(٢) الذهبي: العبر ٣/ ٣١٠-٣١١.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣١٨-٣١٩، الأصفهاني: آل سلجوق ص٧٧-٧٩، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٨٥.

أما الموصل فإنها استمرت تحكم مباشرة من قبل السلاطين السلاجقة الذين كانوا ينيبون عنهم في حكمها ولاة كانوا يتلقون أوامرهم من السلطان (وهو الموضوع الذي سينصبُّ عليه هذا البحث).

كانت ثورة تتش فاتحة عهد طويل قاسٍ من الانشقاقات والحروب التي لا تنتهي بين السلاجقة. وقد حاول بعض الخلفاء العباسيين استغلالها لتثبيت مركزهم وتقوية سلطتهم، كالمسترشد والراشد اللذين عرَّضهما طموحهما للهلاك. وكان للأمراء المحليين دور كبير في تقرير مصير معظم هذه الحروب بوقوفهم إلى جانب هذا السلطان أو ذاك. وبينما كانت الموصل تؤكد خلال هذا الصراع علاقتها المباشرة بالسلاطين عن طريق المشاركة فيه، كانت بلاد الجزيرة والشام، وبخاصة دمشق وحلب، قد ابتعدتا عن هذا الصراع وبلورتا استقلالهما الذاتي.

في هذه الفترة ظهرت على المسرح قوة جديدة كان لها أثرها الكبير في المنطقة؛ تلك هي الصليبيون الذين جاؤوا بحملتهم الأولى في أواخر القرن الخامس، وظهروا على سواحل الشام في مطلع العقد الأخير من ذلك القرن. كان يحكم العالم الإسلامي آنذاك أربع قوى: الفاطميون في مصر، والسلاجقة في بلاد فارس والعراق، والخلافة العباسية في بغداد، ثم الأمراء المحليون في الجزيرة والشام.

ولما كانت الخلافة الفاطمية تمر بمرحلة التدهور والانهيار بسبب المنازعات الداخلية وضربات السلاجقة، لذا لم تستطع أن تقوم بدور يذكر في صدِّ القوى الصليبية عن بلاد الشام، بل على العكس حاولت الإفادة من هذه القوة الجديدة من أجل استعادة ما أفقده السلاجقة إياها في آسية ولا سيما فلسطين. لذا سعى الفاطميون لعقد تحالف مع الصليبيين لتحقيق أهدافهم المشتركة، فأرسلوا سفارة إلى معسكر الصليبيين عند إنطاكية عام ٤٩٢هـ عرضت عليهم اقتراحاً يتضمن العمل على اقتسام أملاك السلاجقة

في الشام، فيكون للصليبيين إنطاكية وشمالي الشام، ويكون للفاطميين فلسطين. وقد استقبل الوفد الفاطمي بحفاوة بالغة من قبل الصليبيين، وأرسل هؤلاء بدورهم وفداً إلى مصر، ولكن لم يتم أي اتفاق رسمي بين الطرفين[١]، ربما لأن القدس كانت هدف الطرفين الرئيسي. وفيما عدا المحاولات الدفاعية التي قام بها الفاطميون في السنوات الأولى من الهجوم الصليبي، لم تصدر عنهم خطة طويلة المدى للتصدي لهذا الخطر.

أما السلاجقة فإن صراعهم على السلطة بدّد قواهم في هذا الاتجاه[٢]! ولم يستطع أي منهم أن يقوم بعمل خطير ضد الصليبيين سوى بذل الوعود من جهة، وتوجيه الأمراء المحليين وبعض قادة السلاجقة لقتال الصليبيين بين الحين والحين من جهة أخرى. فعندما كثر الاستنفار على الصليبيين عام ٤٩١هـ وكثرت الشكاوى منهم بكل مكان، أصدر السلطان بركياروق أوامره إلى عدد من الأمراء يأمرهم بالخروج مع وزيره ابن جهير لقتال الصليبيين. وقد اجتمع بعض هؤلاء الأمراء في بغداد، ولكن لم يُتَّخذ أي إجراء جاد بتوجيههم للقتال «فانفسخت هذه العزيمة» كما يقول ابن الجوزي[٣]، وفي العام التالي، وبعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس وأجروا فيه مجزرتهم الرهيبة المعروفة، انهال المستنفرون من بلاد الشام على بغداد مستنجدين، فندب الخليفة أحد موظفيه للذهاب إلى أصفهان وإطلاع السلطان على هذه المصيبة، «فوقع التقاعد»[٤]، ثم نجد بعد ذلك أمثلة أخرى على رغبة أكيدة

---

(١) Grouss et : A Histoire des Croisades 1/83-85 Runciman : A History of the Crusades , 1/230

ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٣٥، العريني: الحروب الصليبية ١/٢٤٣-٢٤٤، حبشي: أعمال الفرنجة ص٥٩.

(٢) انظر: ابن الساعي: المختصر ص٩٣.

(٣) المنتظم ٩/ ١٠٥-١٠٨، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٠-١٥٢.

(٤) المصدران السابقان، نفس الصفحات.

من سلاطين السلاجقة للتصدي بأنفسهم للخطر الصليبي، إلا أن المشاكل الداخلية التي كانت تجابههم باستمرار كانت تحول بينهم وبين هذا العمل. ففي عام ٥٠٣هـ مثلاً عزم السلطان محمد على غزو الصليبيين وكتب إلى أمراء الأطراف يخبرهم عن عزمه واستعداده للجهاد، وأرسل إلى طغتكين أمير دمشق يطلب منه تجهيز قواته ريثما يصل السلطان إلى دمشق، إلا أن موانع وعوائق عرضت للسلطان عاقته عن تنفيذ ذلك[١]، وفي عام ٥٠٧هـ جهز السلطان محمد ولده الملك مسعود للتوجه إلى الشام لقتال الصليبيين، وكتب بذلك إلى أمراء الأطراف «ثم عرض أمر منعه من ذلك»[٢].

أما الخلافة العباسية فلم تكن تملك من القوة المادية ما يتيح لها الاشتراك الفعلي في قتال الصليبيين والدفاع عن بلاد الشام، وما كان لها من قوة معنوية استغلتها في الحث على الجهاد والاستنجاد بالسلاطين كلما جاء المستنفرون من بلاد الشام، فيجيبهم السلطان بالوعود التي اطلعنا على جانب منها.

هذا، بينما راح الصليبيون يتوغلون شرقاً وجنوباً ويستولون على المواقع والمدن والحصون واحدةً تلو الأخرى، وتمكنوا في أقل من ثلاثة عقود، أن يستولوا على معظم بلاد الشام وأهم قلاعها ومعاقلها، مستغلِّين ضعف الخلافتين العباسية والفاطمية، وانشغال السلاجقة بالصراع الداخلي. ولم يبق لتحمل عبء الجهاد إذن سوى أمراء الولايات المحلية في الجزيرة والشام جنباً إلى جنب مع ولاة الموصل. وقد قام هؤلاء جميعاً بدورٍ جاد لصد الخطر الصليبي، حيث أتاحت هذه الظروف العامة، الصعبة، المجال واسعاً لظهور شخصيات قوية في عالم الجهاد، كما أدَّت إلى تبلور الاستقلال الذاتي لبعض الإمارات، وإلى ظهور إمارات جديدة على مسرح الجزيرة والشام.

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣١.

(٢) المصدر السابق ٨/ ٤٦.

الموصل بين عهدين

إن العصر الذي سبق الحكم الأتابكي[1] للموصل، والذي يمكن تسميته بعهد ولاة السلاجقة كان يتَّسم بخصائص عامة جعلته يختلف إلى حد ما عن الحكم الأتابكي الذي أنشأه عماد الدين زنكي في الموصل عام ٥٢١هـ. ويبدو من الناحية الظاهرية أن كِلَا العهدين متمّم للآخر، وأن العهد الثاني إنما هو استمرار لسابقه من حيث طبيعة العلاقة بالسلطان السلجوقي الحاكم، حيث كان الأمراء في كِلا العهدين يمارسون مهامهم الإدارية كنواب عن السلاطين السلاجقة، ومن حيث الوقوف ـ قوةً وضعفاً ـ بوجه الخطر الصليبي الزاحف. ولكننا إذا ما تفحصنا بدقة طبيعة الحكم في كِلا العهدين فسنجد بينهما تفاوتاً واضحاً، سواءً في علاقاتهما الخارجية أم في سياساتهما الداخلية.

وأول ما يلاحظ في هذا المجال أن الولاة كانوا على اتصال مباشر بالسلطان السلجوقي يوجههم كيف يشاء، ويعزلهم متى أراد، حتى لو اضطره الأمر إلى استخدام القوة ضد من تحدثه نفسه بالسعي إلى الاستقلال بمناطق ولايته، ورفض الارتباط المباشر بالسلطان. أما في العهد الأتابكي فقد غدا أمراء الموصل على درجة كبيرة من الاستقلال والتمتع بالسلطة الفعلية، ولم يبق للسلطان السلجوقي سوى السلطة الرسمية (الشكلية). وأبرز مثل على ذلك هو استقرار النظام الوراثي في الحكم في أعقاب عماد الدين

(١) رغم أن عدداً من ولاة السلاجقة قبل زنكي كانوا أتابكة أيضاً، حيث كلفوا بالإشراف على أبناء السلاطين الذين أديرت البلاد باسمهم، إلا أن معظم المؤرخين القدماء والمحدثين خصوا بلقب الأتابكة زنكي وأبناءه من بعده، وهو العهد الذي يطلق عليه اسم (العهد الزنكي).

زنكي بحيث لم تعد للسلطان أية مشيئة في عزل أحدهم، أو إصدار أوامره لوالٍ جديد بالتوجه إلى الموصل واستلام إدارتها، كما كان الحال في السابق.

وإذا كان الولاة معرضين دائماً ـ نتيجة ارتباطهم المباشر بالسلطان ـ للإقالة والعزل من جهة، ولتلقي الأوامر بالتوجه إلى الشام لقتال الصليبيين الذين كانوا يزحفون بسرعة صوب الشرق ـ من جهة أخرى ـ؛ فقد غدت طبيعة إدارتهم وسياستهم الداخلية قلقة غير مستقرة، بحيث إن زنكي لدى استلامه مهام الحكم في الموصل لم يجد ثمَّة جهازاً واضحاً للإدارتين المحلية والعامة في مختلف المجالات، فقام هو بإنشاء جهاز إداري متكامل. كما أنه وجد تدهوراً في النشاط العمراني، وخراباً شمل مناطق واسعة من الموصل، حتى إن الناس لم يكونوا يستطيعون الذهاب إلى الجامع ـ فيما عدا يوم الجمعة ـ بسبب بعده عن المناطق السكنية[١].

وهذا يشير إلى عدم اهتمام معظم ولاة السلاجقة بإعادة إعمار المناطق التي استولى الخراب عليها، رغم انتشارها في قلب المدينة، وظل الأمر كذلك حتى مجيء زنكي وقيامه بإصلاحات مهمة في هذا المجال.

أما الناحية الاقتصادية، حيث تعد الزراعة الأساس الرئيسي لاقتصاديات المنطقة بناءً على موقعها وطبيعة مناخها ووفرة مياهها، فقد أصيبت هي الأخرى بالتدهور في هذا العهد، وغدت أقل البلاد فاكهة ـ كما يشير ابن الأثير ـ: قلَّ عنبها حتى كاد ينعدم، وتقلَّص إنتاج الرمان والكمثرى والتفاح إلى حد كبير[٢]. ولم تتطرق المصادر إلى وضعية زراعة الحبوب، ولا إلى بقية الفعاليات الاقتصادية الأخرى كالتجارة والصناعات المحلية. وإذا ما

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٧٧، الكامل ١١/ ٤٥، أبو شامة: الروضتين ١/ ١١٠.
(٢) ابن الأثير: الباهر ص٧٨، الكامل ١١/ ٤٥.

عرفنا مدى ارتباط النشاط الاقتصادي بالحركة العمرانية بدا واضحاً تأخر الموصل في هذا المضمار كتأخرها في العمران، خاصة بعد افتقاد الأمن في المنطقة إلى حد غدا معه أي من سكان المدينة لا يستطيع الابتعاد كثيراً عنها إلا ومعه من يحميه[1]. ولعب العيارون وقطاع الطرق ـ الذين تعدى نشاطهم مدينة بغداد ـ دوراً كبيراً في افتقاد الأمن وتدهور التجارة، حيث قاموا ـ في هذه الفترة ـ بأعمال التمرد والاستيلاء على السفن التجارية القادمة من الموصل صوب بغداد وبالعكس[2].

فإذا ما أضيف إلى ذلك ظلم بعض ولاة السلاجقة الذين تسلموا حكم الموصل بأساليب العنف، وإتاحة الفرصة للأقوياء بظلم الضعفاء، وعدم استقرار أي والٍ مدة كافية من الزمن يستطيع ـ معها ـ أن يتفهَّم مشاكل المدينة وما يحيط بها، واحتياجات سكانها، من أجل أن يقوم بإحداث إصلاحات جدية ـ كما فعل زنكي فيما بعد ـ، فضلاً عن الخطر الصليبي الذي كان يتهدد جميع المواقع غربي الموصل، وانهماك الولاة بإيقاف هذا الخطر، والقلق الذي سيطر على السكان[3]، استطعنا أن ندرك مدى تدهور الحالة الاقتصادية، حتى لقد ارتفعت الأسعار في بعض السنين، في المنطقة، وهلك كثير من ضعاف الناس جوعاً[4].

ومما زاد في تقلص النشاط التجاري في المنطقة ما كان التجار والمسافرون يتعرضون له من تهديد الصليبيين وهجماتهم على القوافل التجارية، بحيث لم يكن أحد هؤلاء يبحث عن طريق غير مسلوك هرباً من الصليبيين حتى يجد نفسه معرضاً للخطر من قبل البدو المنتشرين في

---

(١) الكامل ١١/ ٤٥.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حـ ٩ص٢١٦.

(٣) الكامل ١١/ ٤٥.

(٤) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢١٢.

المنطقة. ولم يستطع حكام المسلمين الحد من هذه المخاطر لانشغالهم بالمنازعات والحروب فيما بينهم.

وكانت هناك ظاهرة (التحكم) التي اتسمت بها هذه المرحلة التاريخية، أكثر من أي وقت مضى، والتي نجمت عن رغبة كل أمير في الاستقلال الذاتي، واتخاذ الألقاب المختلفة. وكان استفحال هذه الظاهرة يقف حائلاً دون توسع أية إمارة وبلوغها درجة من التمكن العسكري والاقتصادي. وقد أثر هذا بطبيعة الحال على موارد الموصل واقتصادياتها. إذ اقتطعت معظم المواقع والقلاع التابعة للموصل من قبل الأمراء الطموحين، وما تبقى مما يعود للسلطنة السلجوقية عانى من ظاهرة أخرى هي الإقطاع، حيث أقطع معظمه، حتى إن السلطان محمود السلجوقي نفسه لم يكن له عمال وبطل ديوانه، إذ لم يبق للديوان من عمل سوى مصادرة أموال ذوي اليسار[١].

وإزاء ذلك تفنن الأمراء المحليون في فرض الضرائب الكثيرة على الأهالي، وكانت (المكوس) أهم هذه الضرائب، وكانت تعتبر ـ آنذاك ـ علامة الظلم، حتى إن السلطان محمد ـ لدى وصوله بغداد عام ٥٠١هـ ـ قام بمحاولة للتقرب إلى رعيته فأمر برفع المكوس وإبطال رسومها عن التجار والمسافرين في جميع بلاده، وحظر على عماله وموظفيه تناول اليسير منها، ولكن ما أن عاد إلى أصفهان حتى طمع كبار الأمراء والموظفين بالتجار، واستأنفوا فرض المكوس عليهم مخالفين بذلك أوامر السلطان السلجوقي، لولا أن هذا أكد أوامره من جديد في إبطال تلك الضريبة وحذر من مخالفته في سائر البلاد[٢].

وكانت الموصل والبلاد المجاورة تعاني من هذه الضريبة وغيرها كالأعشار والرسوم والمؤن؛ بدليل أنها استمرت في عهد زنكي، ولم ترفع

(١) عماد الدين الأصفهاني، تاريخ دولة آل سلجوق (اختصره البنداري) ص١٢٣.
(٢) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٦٢، أبو الفدا، المختصر: ٤/ ١٤٩.

نهائياً إلا في عهد ابنه نور الدين محمود عام ٥٦٧هـ، وكانت هذه الضريبة قد بلغت في مدينة الموصل مقداراً كبيراً[١] هذا فضلاً عن الضرائب الثابتة كالجزية والخراج، والتي كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تذهب لصالح الولاة[٢].

وقد أثَّرت هذه العوامل جميعاً وأدت إلى وقف تزايد سكان الموصل وعدم اتساع دائرتهم السكنية، وقد استمرت الأمور تجري على هذا المنوال طيلة عهد الولاة، ولم يحدث تبدُّل واضح إلا بعد مجيء زنكي، حيث عمر البلاد فامتلأت أهلاً وسكاناً[٣]، وبدأت الموصل تشهد هجرةً إليها من المناطق الأخرى[٤] مما أدى إلى تحول المدينة، قليلة السكان، إلى عاصمة لأقوى إمارة شهدها الربع الثاني من القرن السادس الهجري.

ولم تتمتع الموصل في عهد الولاة باستقلال عسكري يذكر، بل على العكس كانت في هذه الفترة قاعدة للتحركات العسكرية بأمر السلاجقة؛ سواءً للإسهام في الصراع بين السلاطين من أجل الحكم، أو لقتال الصليبيين ووقْفِ خطرهم الزاحف. وقد حققت الموصل في كلتا الحالتين نتائج هامة.

ثم تأتي الناحية السياسية، فإذا بالموصل، في هذا العهد ـ تخطب رسمياً للسلاجقة، تارةً للسلطان السلجوقي في أصفهان أو بغداد، وتارة أخرى لسلطان المناطق الشمالية والشرقية من الدولة السلجوقية، حسب الاتفاق بين السلاطين المتنازعين[٥] ولم يقف الأمر عند حد العلاقة الرسمية بل تعداه

---

(١) انظر ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ١/ ٢٧٥-٢٧٦ (للاطلاع على إصلاحات نور الدين زنكي المالية). وانظر أيضاً: ابن الأثير: الباهر ص١٥٤، الكامل ١١/ ١٤٧.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١١/ ٤٥.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص٧٧.

(٥) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٨، الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية ص٧٨.

إلى الناحية الفعلية، حيث كانت الموصل تخضع تارة لسلطان فارس والعراق، وتارة أخرى تغدو ضمن إقطاعات الملك السلجوقي الحاكم في الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام. ففي الصراع الذي نشب بين السلطان محمود وبين عمه سنجر ـ سلطان خراسان وما وراء النهر ـ والذي انتهى بانهزام محمود وتنازله لعمه، رأى هذا أن يكرم ابن أخيه فأقطعه من البلاد الجهات الشمالية من بلاد فارس والعراق والشام، وبضمنها منطقة الموصل والجزيرة، وأصدر سنجر منشوراً بذلك[١].

أما علاقة ولاة الموصل بالخلافة العباسية، فلم تكن تقوم إلا على رابطتين: إحداهما رمزية تجعل من الخليفة الرئيس الأعلى للمسلمين، والأخرى روحية تضفي على مركز الخليفة صفة شرعية، وتحتم على الولاة الخطبة له على المنابر أيام الجمعة وفي المناسبات العامة، وفيما عدا ذلك لم تكن للخليفة العباسي أية سلطة فعلية إزاء الولاة.

(١) أبو شامة، الروضتين ١/ ٧١.

قوام الدولة أبو سعيد كربوقا
٤٨٩-٤٩٥ هـ

اشتهر ولاة الموصل ولمعت أسماء معظمهم في هذا العهد، ليس بسبب جهادهم ضد الصليبيين فحسب، بل لأنهم لعبوا دوراً هاماً في الصراع المستمر بين سلاطين وملوك السلاجقة، كما قام بعض هؤلاء الولاة بنشاط واسع في المنطقة، وإنشاء علاقات مختلفة مع أصحاب الإمارات الكثيرة المنتشرة في هذه الجهات.

والوالي السلجوقي الأول الذي شهدته الموصل بعد سقوط آخر أمير عقيلي هو قوام الدولة أبو سعيد كربوقا أو (كربوغا)، حيث أرسل السلطان بركياروق عام ٤٨٩هـ رسوله إلى رضوان بن تتش السلجوقي أمير حلب بإطلاق سراح كربوقا وأخيه التونتاش من السجن. وكان هذان محبوسين منذ ما يقرب من سنة بسبب موقفهما من الصراع بين تتش حاكم الشام السلجوقي وبين السلطان بركياروق الذي أراد تتش انتزاع السلطنة منه. فلما قتل تتش واستولى ابنه رضوان على حلب أبقى كربوقا وأخاه في السجن لحين ورود أمر بركياروق بإطلاق سراحهما.

وما أن غادرا السجن حتى استطاعا ـ كعادة قادة التركمان في تلك الفترة ـ أن يجمعا حولهما الكثير من الجند الذين لم يكن لهم من عمل آنذاك، وتقدما إلى حران واستوليا عليها، وعند ذلك كاتبهما محمد بن شرف الدولة العقيلي من نصيبين يستنجد بها على أخيه عليّ بن شرف الدولة الذي كان تتش قد عيَّنه على الموصل إثر استيلائه عليها. فتوجه كربوقا وأخوه إلى نصيبين حيث استقبلهما محمد عند أسوارها واستحلفهما لنفسه. ولكن كربوقا سرعان ما نقض الحلف وقبض على حليفه وتقدَّم إلى نصيبين

مؤملاً الاستيلاء عليها عن طريق التهديد بأميرها الأسير. ولكن نصيبين امتنعت عليه، فحاصرها أربعين يوماً وتمكن أخيراً من الاستيلاء عليها. ثم اتجه ـ بعد ذلك ـ إلى الموصل وضرب حولها الحصار، إلَّا أنه لم يحقق أي نتيجة فتركها باتجاه بلد جنوبي الموصل حيث قتل محمد بن شرف الدولة ملقياً جثته في نهر دجلة، ثم عاد إلى الموصل ثانية ليحاصرها من جديد. وسرعان ما استنجد عليّ بن شرف الدولة بالأمير شمس الدولة جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر شمالي الموصل فاستجاب هذا لنجدته وتقدَّم لقتال قوات كربوقا وأخيه، إلَّا أنه انهزم عائداً إلى جزيرة ابن عمر. ولم يلبث كربوقا أن استماله واتخذه حليفاً له ضد الموصل[1].

اشتد الحصار على الموصل، وانعدمت الأقوات ومواد الوقود مما اضطر الأهالي إلى إيقاد القير وحَبّ القطن. فلما ضاق الأمر بصاحبها عليّ تركها وتسلل خارجاً صوب الحلَّة ملتجئاً بالأمير صدقة بن مزيد هناك. ومن ثم استولى كربوقا على الموصل بعد حصار دام تسعة أشهر. وعم الخوف أهالي المدينة لانتشار شائعات مفادها أن أخاه التونتاش يسعى لنهبهم، وأن كربوقا يقف حائلاً دون ذلك، مما اضطر التونتاش إلى إلقاء القبض على أعيان البلد ومطالبتهم بالودائع والأموال التي جمعوها خلال الحصار، واستطال التونتاش على أخيه فرأى هذا نفسه مضطراً إلى إصدار أمره بقتله، فقتل التونتاش في اليوم الثالث من الاستيلاء على المدينة وتخلص السكان من تجبُّره، ومن ثم أحسن كربوقا السيرة في أهالي الموصل. ولم يكتف بما حققه من نصر بل سعى لتحقيق انتصارات أخرى، فتوجه صوب الرحبة للاستيلاء عليها فصمدت له، إلا أنه تمكَّن أخيراً من الاستيلاء عليها ونهبها

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/٩٦، الباهر ص١٥، أبو شامة: الروضتين ١/٦٧، ابن واصل: مفرج الكروب ١/٢٨، أبو الفدا: المختصر ٤/١٢٢-١٢٣، الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/٣٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٩٥، ابن خلدون: تاريخ ٥/١٧ .

وتعيين نائب له فيها، وعاد إلى الموصل[١]. وتمكن بعد فترة قصيرة من الاستيلاء على ماردين ـ أهم موقع في ديار بكر شمالي الجزيرة ـ فامتدت أطراف إمارته وعظم شأنه، خاصة وأنه كان ينوب عن السلطان السلجوقي بركياروق في المنطقة ويعلن له الطاعة[٢].

لعب كربوقا دوراً مهماً في تربية الأمير عماد الدين زنكي والعناية به، إذ كان كربوقا من مماليك أبي زنكي قسيم الدولة آق سنقر حاكم حلب ٤٧٩ ـ ٤٧٨هـ فلم ينس فضله عليه، فاستدعى مماليك آق سنقر وطلب منهم إحضار زنكي بين يديه قائلاً لهم: هو ابن أخي وأنا أولى الناس بتربيته. فأحضروه عنده لكي يشرف بنفسه على تربيته، فضلاً عن أنه استعان في حروبه بمماليك أبيه آق سنقر الذين كانوا يمتازون بالشجاعة والإقدام، وأقطعهم الإقطاعات الواسعة[٣]. وقد كان لهؤلاء المماليك دور مهم في المعارك التي خاضها كربوقا ضد بعض المواقع في ديار بكر[٤]، أسهم كربوقا على نطاق واسع في الصراع الذي كان يدور باستمرار بين سلاطين السلاجقة وملوكهم من أجل الاستئثار بالحكم أو الحصول على مزيد من المواقع. ولم يتخذ كربوقا موقفاً واحداً إزاء هذا الصراع، وإنما كان ينتقل من معسكر إلى آخر باحثاً عن السلطان المنتصر لينضم إليه ويعمل تحت لوائه، ولعل مما يبرر موقفه المتأرجح هذا كونه تابعاً للسلاجقة يأتمر بأمرهم، فكان لا بدَّ له من إطاعة السلطان الأقوى لكيلا ينال عقاب المتمردين.

وقد شهد عام ٤٩٢هـ إحدى جولات الصراع بين السلطانين محمد، الذي كان يحكم الجهات الشمالية السلجوقية، وبركياروق سلطان فارس

---

(١) انظر مصادر الهامش السابق .

(٢) ابن الأثير: الباهر ص١٥.

(٣) المصدر نفسه ص١٥-١٦.

(٤) المصدر السابق: نفس الصفحة، الكامل ١٤٦/١٠، أبو شامة: الروضتين ٧/١.

والعراق، وانضم كربوقا إلى محمد فيمن انضم إليه من أمراء الأطراف، وشعر محمد بمدى قوته فأرسل إلى بغداد يطلب أن يخطب له فيها، فتمَّ له ما أراد، وخطب له على منابرها في السابع عشر من ذي الحجة عام ٤٩٢هـ[١]. وفي العام التالي أخذ بركياروق يتراجع في بلاد فارس إزاء تقدُّم أخيه محمد، وعندما اجتمع حوله عدد من الأمراء والأجناد سعى للقاء أخيه، ودارت المعركة بينهما في الثالث من جمادى الآخرة عام ٤٩٤هـ، حيث انتصر بركياروق وانهزم محمد بعد أن تفرق عنه معظم عسكره. ولما فرغ بركياروق من هذه المعركة توجه إلى الري حيث اجتمع إليه هناك كربوقا وعدد من الأمراء. وحدث أن أعلن الملك السلجوقي مودود بن إسماعيل تمرُّده في أذربيجان فوجَّه إليه بركياروق جيشاً قوامه عشرة آلاف فارس عهد بقيادته إلى كربوقا. وقد تقدَّم هذا صوب أذربيجان وحقق مهمته بنجاح حيث تمكن من الاستيلاء على معظمها، إلَّا أن مرضه حال دون إنجاز هذه المهمة فأوصى بولاية الموصل لأحد أمرائه المدعو (سنقرجه) وأمر الأتراك بطاعته. وما لبث كربوقا أن توفي في ذي القعدة عام ٤٩٥هـ، فتوجه سنقرجه على رأس قواته صوب الموصل وتسلَّم مهام الحكم فيها[٢].

كان أعيان الموصل قد كاتبوا موسى التركماني، نائب كربوقا في حصن كيفا، وطلبوا منه أن يبادر إليهم ليسلموا إليه البلد، فأسرع هذا بالتوجه نحو الموصل، وعندما سمع (سنقرجه) بوصوله خرج مع أهالي البلد لاستقباله ظناً منه أنه جاء ليعلن له الطاعة ويعمل تحت زعامته. وعند اللقاء جرى بين القائدين حوار تتضح من خلاله طبيعة علاقة الوالي بالسلطان السلجوقي. إذ بيَّن سنقرجه لموسى التركماني: أن قصده من كل ما كان لكربوقا المنصب

---

(١) أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١٢-١١٣، ١٢٧-١٢٨، الباهر ص١٦، أبو الفدا، المختصر ٤/ ١٣١-١٣٢، ابن الوردي: تاريخ ٢/ ١٣-١٤، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٢٢، ٢٩-٣٠.

فحسب، أما الأموال والحكم الفعلي «فلك وبحكمك»، فكان جواب موسى أنه لا اختيار لهما في هذه المسائل إنما ذلك للسلطان يعين من يريد ويولي من يختار!! وأغلب الظن أن موسى أراد بهذه الكلمات تعزيز مركزه ضد سنقرجه بإضفاء طابع الطاعة للسلاجقة على موقفه. ولم يطل الحوار بينهما بعد ذلك، إذ حاول سنقرجه قتل موسى، ولكن المحاولة انقلبت عليه فقتل، وتوجه موسى إلى الموصل وأحسن إلى أصحاب سنقرجه ولم يلحق بهم أي عقاب، استمالة لهم وخوفاً من استفزاز السلطان بركياروق[1].




(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١١٢-١١٣، ١٢٧-١٢٨، الباهر ص١٦، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٣١-١٣٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٢٩-٣٠، ٣١١.

شمس الدولة جكرمش

٤٩٥-٥٠٠ هـ

لما سمع جكرمش ـ صاحب جزيرة ابن عمر ـ خبر دخول موسى الموصل تحرك للاستيلاء على بعض المواقع في المنطقة، مستغلاً انشغال موسى وخلوَّ الجو، وتمكن من الاستيلاء على نصيبين. إلا أن موسى لم يترك له المجال ليفعل مايشاء، وأسرع في مهاجمة جزيرة ابن عمر كي يضطره إلى العودة للدفاع عنها وملاقاة منافسه، إلا أن موسى ما أن اقترب من جكرمش حتى غدر به عسكره وانضم إلى جكرمش فاضطر موسى للعودة إلى الموصل، فلحقه جكرمش إليها وحاصرها مدة طويلة، فاستعان موسى بالأمير التركماني سقمان بن أرتق وطلب نجدته مقابل التنازل له عن حصن كيفا الشديد التحصين، ومنحه عشرة آلاف دينار. فاستجاب سقمان للعرض وتقدم صوب الموصل لقتال جكرمش، فاضطر هذا إلى فك الحصار والابتعاد عن المدينة. وخرج موسى لاستقبال سقمان بن أرتق، إلا أن بعض غلمانه اغتالوه في إحدى القرى القريبة من الموصل، فعاد أصحابه إلى الموصل متفرِّقين، ورجع سقمان إلى حصن كيفا فاستولى عليه. أما جكرمش فقد أتيحت له الفرصة ثانية فتوجه نحو الموصل، وحاصرها أياماً، ثم دخلها سلماً وأحسن السيرة فيها، وقتل أولئك الذين اغتالوا موسى، استرضاءً للأهالي، في أغلب الظن، نظراً لما كان يتمتع به موسى من تأييد هؤلاء. ولم يشأ جكرمش أن يضيِّع مزيداً من الوقت في الموصل، بل أسرع في الاستيلاء على مناطق واسعة من الجزيرة والجهات الجبلية، فأطاعه العرب والأكراد[1].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١١٢-١١٣، ١٢٧-١٢٨، الباهر ص١٦، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٣١-١٣٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/٢٩-٣٠، ٢١١.

وبهذه النتيجة تنتهي مرحلة مهمة من الصراع على السلطة في الموصل. أتاحها للأمراء المتنافسين انشغال السلاجقة بما هو أهم من مشاكل الإمارات والولايات، أي بما يتعلق بالعروش نفسها التي غدت عرضة للسقوط بين الحين والآخر، كلما انتقض ملك أو تحرك سلطان للقتال، ومن ثم أهملت قضية الموصل دونما تدخل جاد من قبل السلاجقة، الأمر الذي أتاح لجكرمش أخيراً الاستئثار بالموصل والتمتع باستقلال ذاتي استمر عدة سنوات.

ولكن ما أن توصل كل من السلطانين بركياروق ومحمد عام ٤٩٧هـ إلى اتفاق على تسويات معينة أهمها أن يكون لمحمد الجهات الشمالية من الدولة السلجوقية، حتى أسرع هذا بالتوجه إلى مراغة في شمال بلاد فارس واجتازها مسرعاً صوب (أربل) قاصداً الموصل لقتال جكرمش واستعادة إمارته وضمها فعلياً إلى القسم التابع للسلطان محمد من ممتلكات الدولة السلجوقية[١].

عندما سمع جكرمش باقتراب الخطر اتخذ الاحتياطات الكافية؛ فجدَّد سور الموصل، ورمم ما احتاج منه إلى ترميم، وأصدر أوامره إلى فلَّاحي سواد الموصل وأهاليه بدخول البلد، وهدَّد بنهب أموال من لم ينفذ هذه الأوامر، وسرعان ما بدأ السلطان محمد حصاره للموصل، وأرسل إلى جكرمش يعلمه بالصلح الذي تم بينه وبين أخيه بركياروق وأن من بنود هذا الصلح أن تكون الموصل وكافة بلاد الجزيرة للسلطان محمد، وعرض عليه وثائق بركياروق الخاصة بهذا الصلح وأوامره إلى جكرمش بتسليم الموصل لأخيه محمد. وقال له: إن أعلنت الطاعة فسوف لا آخذ المدينة منك، بل أقرها بيدك وتكون الخطبة لي. فرد جكرمش: إن كُتُبَ السلطان بركياروق وردت إليَّ بعد الصلح تأمرني أن لا أسلِّم البلد إلى غيره!![٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٤٣.

(٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

لقد حاول جكرمش ـ فيما سبق ـ أن يستغل التأزُّم الحاصل بين السلاطين ويحقق لنفسه استقلالاً ذاتياً، وعندما هُدِّد بإحدى السلطنتين السلجوقيتين رأى أن تكون طاعته للسلطان البعيد كيلا تكون سلطته الفعلية نافذة، وهذا ما أراده بجوابه للسلطان محمد. فلما رأى هذا امتناع جكرمش عن طاعته أعلن القتال وزحف إلى البلد يتقدَّم جيشه النقابون والدبابات، وهما سلاحان أساسيان لحرب الأسوار، ولكن هذا الهجوم العنيف سرعان ما جُوبِهَ بدفاع شديد من أهالي الموصل وجندها واستماتة في حفظ مدينتهم. فجكرمش قد أحسن السيرة فيهم فأحبوه، ورأوا فيه الأمير القائد الذي يجب أن يدافعوا عنه. وأصدر جكرمش أمراً بفتح بعض الأبواب السرية في السور، فكان يخرج منها بين الحين والآخر مجموعات من الرجال يشنون حرب العصابات على معسكرات السلطان فيقتلون ويغنمون ثم يعودون. بينما تجمع بعض أصحاب جكرمش في تل يعفر ـ غربي الموصل ـ وقاموا من جهتهم بشن غاراتهم على معسكرات السلطان، وإحباط وصول الميرة والتموين إليهم[(١)].

بلغ نشاط أهل الموصل ودفاعهم أقصاه، حتى إن جند السلطان استطاعوا مرة أن يحدثوا ثقباً في السور، وأدركهم الليل فتراجعوا إلى معسكرهم، فلما طلع الصباح إذا بأهل البلد قد بنوه وملؤوه بالمقاتلين. ومما زاد في سيطرة أهل الموصل على الموقف، حالة البلد الاقتصادية ـ آنذاك ـ فقد كانت أسعار المواد الغذائية رخيصة وبخاصة الحنطة والشعير[(٢)].

دام القتال حتى اليوم العاشر من جمادى الأولى؛ حيث وصل الخبر إلى جكرمش بوفاة السلطان بركياروق، فعقد مجلساً استشارياً من أعيان البلد واستشارهم فيما يفعل إثر موت السلطان بركياروق، فردُّوا عليه بأن أموالنا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٤٣، ابن خلدون: تاريخ ٥/٣٤.
(٢) الكامل ١٠/١٤٣.

وأرواحنا بين يديك، وأنت أعرف بشأنك فاستشر الجند فهم أدرى بذلك. فاستشار أمراءه فأجابوه: كنا على الامتناع، ولم يتمكن أحد من الاستيلاء على بلدنا عندما كان السلطان حياً، وأما بعد أن توفي فليس للناس اليوم من سلطان غير محمد، والدخول تحت طاعته أولى. فأرسل جكرمش إلى السلطان محمد يبذل له الطاعة ويطلب مقابلة وزيره سعد الملك، فجاءه الوزير وأخذ بيده وقال له بأن المصلحة تقتضي أن تحضر الساعة عند السلطان فإنه سوف لا يخالفك في جميع ماتلتمسه. فاستجاب جكرمش لرأيه وغادر مقر الإمارة صوب معسكر السلطان، فلما رأى أهل الموصل ذلك تملكهم التشاؤم وضجُّوا بالبكاء. وما أن دخل جكرمش على السلطان حتى أقبل هذا عليه معانقاً ومرحباً، ولم يطلب إليه الجلوس قائلاً: ارجع إلى رعيتك فإن قلوبهم إليك وهم متطلّعون إلى عودتك. فعاد إلى الموصل يصحبه جماعة من خواص السلطان. وفي اليوم التالي أعلن السلطان عن رغبته لجكرمش بدخول البلد وبأن تقام معالم الزينة بهذه المناسبة. فامتنع جكرمش عن قبول الطلب، ولعله أراد بذلك أن يحافظ على كرامة مركزه من جهة وأن يفوت فرصة احتلال المدينة واحتمال الغدر به من جهة أخرى، واكتفى بأن مد سماطاً بظاهر الموصل، وحمل إلى السلطان ووزيره الكثير من التحف الرائعة والهدايا[١]. ومن ثم غادر السلطان الموصل مطمئناً إلى ما حققه من نتائج إزاء جكرمش وإمارته.

لم تمض على هذه الأحداث سنتان حتى جابهت جكرمش محنة أخرى أشد من الأولى. وقدر لهذه المحنة أن تقضي ليس فقط على منصب جكرمش بل على حياته أيضاً؛ ففي مطلع عام ٥٠٠هـ أقطع السلطان السلجوقي أميره (جاولي سقاو) الموصل وجميع الأعمال والمواقع التي يحكمها جكرمش. وكان جاولي قبل هذا قد استولى على البلاد الواقعة بين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٤٣، ابن خلدون: تاريخ ٥/٣٤.

خوزستان وفارس وأقام بها عدة سنين، وعمَّر قلاعها وحصونها، إلا أنه أساء السيرة في أهلها. فلما تمكن محمد من السلطنة، عرف جاولي أنه سوف لا يدعه وشأنه، فتحصن في منطقته وأعلن العصيان إلَّا أن السلطان أرسل إليه يؤمنه، فاطمأن جاولي إليه وغادر مقاطعته إلى أصبهان حيث يقيم السلطان، وهناك رأى منه ما يحبَّ(١).

كانت الرسائل قد تتابعت على السلطان محمد في هذه السنة (٥٠٠هـ) من بعض أمراء الشام، يعلمونه فيها عما استولى عليه الصليبيون من المواقع في الشام، وعما لحق السكان والبلاد على أيديهم من الفتك والإفساد في الأرض، وعن محاصرتهم طرابلس وتشديدهم النكير عليها، ويستغيثون به طالبين نجدةً مستعجلةً. فندب السلطان الأمير جاولي، وعدداً آخر من كبار الأمراء، في جيش كثيف من الأتراك، وكتب إلى بغداد بضرورة إمداد قواته بالمال والرجال(٢). وأمر قائده بالتوجه إلى الشام لإيقاف تقدُّم الصليبيِّين، ومحاولة استرداد ما استولوا عليه، وأقطعه الموصل والجزيرة جميعاً(٣).

كان جكرمش قد اتفق مع السلطان محمد على أن يدفع إليه مبلغاً من المال وأن يكون تحت طاعته مستجيباً لكل ما يصدره إليه من أوامر، وأن يقدم للاجتماع به وتلقِّي تعليماته بين الحين والآخر. إلا أن جكرمش لم يف بهذا الاتفاق، وتثاقل عن أداء التزاماته المالية، مما دفع السلطان إلى أن

(١) الكامل ١٠/١٥٨.

(٢) ابن القلانسي، تاريخ دمشق ص١٥٦.

(٣) يورد ابن القلانسي (المصدر السابق، نفس الصفحة) رواية تختلف عما أورده ابن الأثير، إذ يشير إلى أن السلطان محمد كتب الى جكرمش، في جملة من كتب إليهم، يأمره بإمداد جاولي بالمال والرجال لقتال الصليبيِّين، وأنه أقطع جاولي الرحبة والمناطق الفراتية القريبة فحسب، وأن هذا سار إلى الموصل والتمس من جكرمش تنفيذ ما طلبه السلطان منه . إلا أن هذا لم يجبه إلى مطالبه، ومن ثمَّ تمَّ بينهما اللقاء ... ولا ريب أن ما أورده ابن الأثير أكثر دقةً وانسجاماً مع طبيعة الأحداث كما سنرى .

يقطع بلاده لجاولي. فتقدَّم هذا إلى بغداد وأقام بها بعض الوقت ثم غادرها في ربيع الأول صوب الموصل بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر دجلة، واستولى في طريقه على ما صادفه من قرى ومواقع. وعندما اقترب من أربل وأحس جكرمش بالخطر المحيط به استدعى جيوشه من أطراف إمارته، وجاءته رسالة من أبي الهيجاء بن موسك الكردي صاحب أربل يذكر فيه تقدم قوات جاولي ويقول لجكرمش: إن لم تعجِّل المجيء لنتفق ضده ونصدَّ تقدُّمه، اضطررت إلى الاتفاق معه. فأجابه جكرمش وعَبَرَ دجلة مسرعاً على رأس قواته قبل أن يتم له تجميع كافة عساكره من أطراف البلاد. وفي قرية كلبا من أعمال أربل اجتمع جكرمش بجيش أربل الذي أرسله أبو الهيجاء بقيادة أبنائه. وهناك أدركهم جاولي. وكان ظاهر الحال يوحي بانتصار جكرمش وحلفائه لتفوق عددهم على قوات جاولي، ولكن الهزيمة حلت به وأسر جكرمش نفسه، فأمر جاولي بتشديد الحراسة عليه[١].

كانت الجيوش التي استنفرها جكرمش قد وصلت الموصل ـ بعد يومين من استدعائها، فاتجهت مباشرة صوب أربل لمساندة جكرمش، ولكن بعد فوات الأوان. وعندما وصل خبر الهزيمة إلى الموصل نصب أعيان البلد في الولاية زنكي بن جكرمش الذي لم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره، وخطبوا له. وقام مستحفظ القلعة المسمى غزغلي، وهو أحد مماليك جكرمش، بنشاط واسع حيث وزع الأموال والخيول والميرة على الجند، وأرسل الكتب إلى أمير الحلة وسلطان سلاجقة الروم (قلج أرسلان) وآق سنقر البرسقي شحنة بغداد يطلب منهم فيها التقدُّم إلى الموصل لصد جاولي عنها، واعداً كلّاً منهم بتسليم البلد إليه[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٨-١٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٨-١٦٠.

وصل جاولي الموصل وضرب الحصار عليها، وسعى إلى استغلال وجود جكرمش في الأسر للضغط على أهالي البلد كي يكفوا عن المقاومة. فأمر أصحابه بأن يحملوا جكرمش ـ كل يوم ـ على بغل لينادي أتباعه بتسليم البلد من أجل إنقاذ أميرهم وتخليصه مما هو فيه. وكان جكرمش يأمرهم بذلك فلا يستجيب له أحد. وكان يعاد إثر كل محاولة إلى جبٍّ ليسجن هناك ويوكل به من يحرسه من أيَّة محاولةٍ لاختطافه. وظلَّ على هذا الحال إلى أن توفي وقد جاوز عمره الستين عاماً[١].

لم يستجب أمير الحلة ابن مزيد لرسالة غزغلي، واعتبر ذلك خروجاً عن طاعة السلطان، وأما قلج أرسلان فإنه تقدم على رأس قواته لنجدة الموصل، وما أن سمع جاولي بوصوله إلى نصيبين حتى غادر الموصل متوغلاً في الجزيرة. وأما البرسقي ـ شحنة بغداد ـ فقد سار إلى الموصل وعسكر في جانبها الشرقي، وانتظر إشارة من أهالي الموصل أو من غزغلي، فلم يلتفت إليه أحد أو يرسل إليه كلمةً واحدةً، فانكفأ راجعاً في نفس اليوم[٢].

أرسل أهالي الموصل وجندها إلى قلج أرسلان وتبادلوا معه العهود والمواثيق على النصح والطاعة، فتوجَّه قلج مطمئناً إلى الموصل ودخلها في الخامس والعشرين من رجب، واستقبله ابن جكرمش وأصحابه فخلع عليهم. ومن ثَمَّ تسلم مهام منصبه، وأسقط اسم السلطان محمد من الخطبة، وخطب لنفسه بعد الخطبة للخليفة، وأحسن إلى الجيش، وتسلم القلعة من غزغلي وعُيِّن فيها مستحفظاً آخر وألغى الرسوم والضرائب المجحفة، ونشر العدل في السكان وتألَّف قلوبهم، وأعلن أن من سعى إليه بأحد ـ دون حق ـ قتله، وكان لهذا الإعلان أثر بالغ في وقف الفوضى وإخماد الفتنة. وقد أقرَّ

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٤٠، ابن خلدون ٥/ ١٦٤.
(٢) الكامل ١٠/ ١٥٩-١٦١.

قلج أرسلان قاضي الموصل العريق عبد الله بن الشهرزوري على منصبه لما له من محبة في قلوب الناس ومن تمكن في القضاء. وبعد أن اطمأن قلج إلى ما أحدثه من إصلاحات وأقرَّه من نظم، ولَّى على الموصل ابنه ملكشاه وأبقى معه قوةً من الجند لحمايته، ووكَّل أحد أمرائه بالوصاية عليه، ثم غادر الموصل ليصفي حسابه مع جاولي[1].

كان جاولي قد هاجم الرحبة وتمكن من الاستيلاء عليها ونهبها، وعندما علمت قوات قلج أرسلان بمدى قوة جاولي، انفصل عنه بعض الأمراء عائدين إلى بلادهم، فعمد قلج إلى تجنُّب الاصطدام بعدوِّه خوفاً من الهزيمة، ولكن الأمور جرت على غير ما أراده، فتم اللقاء بقوات جاولي ـ التي كانت تعززها عساكر رضوان أمير حلب ـ في ٢٠ ذي القعدة، ونزلت الهزيمة بقوات قلج ـ كما توقع ـ وأيقن أن أسره سيكون وبالاً عليه لأنه لم يدع للصلح مجالاً من قبل، ولأنه نازع السلطان السلجوقي في بلاده وانتزع منه اسم السلطنة، ففرَّ هارباً عبر نهر الخابور، إلَّا أن فرسه لم تمكنه من إتمام العبور فغاصت بصاحبها إلى الأعماق[2].




---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥٩-١٦١، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٥٦-١٥٨، ابن العبري: مختصر تاريخ البشر ص١٩٨-١٩٩، أبو الفدا: المختصر ٤/١٤٠، ابن خلدون: تاريخ ٥/٣٧-٣٩، ١٦٥.

(٢) نفس مصادر الهامش السابق .

جاولي سقاوة
٥٠٠ ــ ٥٠٢ هـ

أسرع جاولي بالتوجه صوب الموصل، فلما وصلها فتح له سكانها الأبواب ولم يتمكن أنصار قلج أرسلان من منعهم. ورأى جاولي أنَّ من الأفضل له النزول ـ أولاً ـ خارج الموصل كي يبدأ من هناك تصفية العناصر المعادية، فبدأ بتشريد أصحاب جكرمش الذين قاتلوا ضده إلى جانب قلج أرسلان، ونفاهم إلى بلاد شتى. ومن ثم دخل الموصل وأعاد الخطبة للسلطان السلجوقي محمد، وصادر الكثيرين من أصحاب جكرمش، وألقى القبض على ابن قلج أرسلان وأرسله إلى السلطان محمد. وبعد أن استتب له الأمر في الموصل تقدَّم إلى جزيرة ابن عمر فصالحه أهلها وقدَّموا إليه مبلغاً من المال ومقادير كبيرة من ثياب ودواب، فتركهم عائداً إلى الموصل[1].

وهنا تنتهي المرحلة الثانية من الصراع على السلطة في الموصل، وهي مرحلة تختلف في طبيعتها عن سابقتها. فقد نشب الصراع ـ ها هنا ـ بين مندوب عن السلطان يحمل توقيعه بتولي الموصل وأعمالها، وبين والٍ آخر لم يفِ بتعهداته للسلطان، فضلاً عن وقوفه بوجهه عام ٤٩٨هـ ـ كما رأينا ـ ومن ثَمَّ فإن الوالي الجديد يحمل معه مقومات النصر الأدبية والعسكرية ضد غريمه، فضلاً عن أنه انطلق منذ البدء برسالة مقدسة هي الجهاد ضد الصليبيين. ولكن بالرغم من ذلك كله استطاع جكرمش ـ بتأييد الأهالي له ـ أن يصمد أمام الخطر لبعض الوقت. وقد قام كلٌّ من الطرفين ـ خلال ذلك ـ

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٦١، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٥٧-١٥٨، ابن الوردي، تاريخ ٢/ ١٨، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٤٠، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٦٧، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٣٨، ١٦٥.

بعقد المحالفات مع أكبر عدد من الأمراء المحلِّيين، وبينما ظل حلفاء جاولي أنصاراً مخلصين له حتى النهاية، نجد حلفاء جكرمش لا يوفون بالتزاماتهم تجاه الموصل لعلمهم أن تشبُّثهم بموقفهم يعني معارضتهم للسلطان السلجوقي، وقد كان لهذا العامل أسوأ الأثر بالنسبة لأنصار جكرمش.

ظل جاولي على طاعته وإخلاصه للسلطان محمد، ونفذ أوامره عام ٥٠١هـ بالتوجه إلى قلعة الموت في بلاد فارس ـ بصحبة ضياء الملك وزير السلطان ـ لقتال الباطنية، فسارا إلى هناك وهزما الباطنية وقتلا منهم عدداً كبيراً[١]. ولكن جاولي بدأ يشعر بالتدريج بازدياد مكانته، خاصة بعد أن جعل السلطان إليه ولاية كل بلد يفتحه، فاستولى على كثيرٍ من البلاد والأموال، وغرَّته القوة والجاه فامتنع عن تأدية التزاماته المالية تجاه السلطان، كما رفض دعوة السلطان إليه عام ٥٠١هـ بالتوجه إلى بغداد بمعيَّة قواته لإسناد السلطان في إحدى مهامه العسكرية، وأعاد السلطان طلبه على جاولي؛ إلا أن هذا أخذ يتحايل كيلا يقوم بتنفيذ الأمر زاعماً أنه يخاف من عواقب الاجتماع بالسلطان.

ثم ما لبث الأمر أن انتهى بإعلان جاولي العصيان ضد السلطان السلجوقي. وكان قد مهَّد لذلك بسلسلة مكاتبات مع صدقة بن دبيس المزيدي صاحب الحلة الذي كان هو الآخر في صراع مع السلطان، وقد أبدى جاولي له استعداده لمساعدته في حال حربه مع غريمه، ولكن السلطان سرعان ما تغلب على صدقة وقتله، ثم أصدر أوامره إلى مجموعة من الأمراء بقيادة مودود بن التونتكين بالتوجه إلى الموصل وانتزاعها من جاولي. وعندما وصل هؤلاء وجدوا جاولي قد اتخذ كافة الإجراءات الدفاعية؛ فشيَّد سور الموصل، وأحكم ما بناه جكرمش من قبل، وأعد

---

(١) الحسيني: الدولة السلجوقية ص٨١.

الميرة والمؤن وآلات القتال، ومارس ضغطه ضد أعيان المدينة واعتقل عدداً كبيراً منهم، وأبعد عن الموصل عدداً كبيراً ممن لا يطمئن إليهم، وفرض نظام حظر التجول، وهدَّد بإعدام كل من يخالف أوامره المشددة هذه. ثم غادر الموصل متجهاً إلى الشام ـ بعد أن قام بنهب مزارع الموصل ـ تاركاً زوجته تشرف من القلعة على شؤون الدفاع عن المدينة، وجعل في حمايتها ألفاً وخمسمئة فارس من الأتراك وعدداً من الرجالة[١].

وفي رمضان عام ٥٠١هـ فرضت قوات السلطان محمد حصارها على المدينة. والصورة التي تبدو ـ بعد ذلك ـ عن العلاقة بين حكام الموصل وأهاليها تختلف كثيراً عن تلك التي شهدناها حين حاصر السلطان الموصل عام ٤٩٨ هـ. فها هنا نجد شريعة الظلم وعدم التعاون والغدر والمصادرات والاعتقالات؛ فما أن غادر جاولي الموصل حتى راحت زوجته تمارس شتى أنواع الظلم، فقامت بمصادرة من بقي في البلد من الأعيان، وألحقت الأذى بأزواج المبعدين، وبالغت في التشديد على السكان مما دفعهم إلى النفور وعدم التعاون معها في صدّ هجمات القوات المحاصرة. وقد تتابعت هذه الهجمات حتى نهاية المحرم، واتخذ الجند المدافعون حذرهم فلم يسمحوا لأيٍّ من سكان الموصل بالاقتراب من السور.

فلما اشتدت وطأة الحصار على أهالي الموصل، وضاقوا ذرعاً بظلم زوجة جاولي، عقد نفر من الجصاصين اجتماعاً سرياً فيما بينهم، اتفقوا خلاله على تسليم البلد لقوات السلطان عن طريق فتح منفذ يندفعون منه للاستيلاء على الموصل. وما أن حانت صلاة الجمعة واتجه الناس إلى الجامع، حتى صعد الجصاصون إلى أحد الأبراج وأغلقوا أبوابه، وقتلوا

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٢-١٧٤، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٠، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣١، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٢٨-٢٩، ابن خلدون ٥/ ٣٩-٤١.

مَنْ به من الجند الذين كانوا يغطُّون في نومٍ عميق، واستولوا على سلاحهم وألقوا جثثهم إلى أسفل السور، ثم تقدَّموا إلى البرج الآخر للاستيلاء عليه، ولكن الجند اكتشفوا أمرهم وهاجموهم، فقاتلهم الجصَّاصون وهم ينادون بشعار السلطان السلجوقي، حتى تمكنت قوات السلطان من الدخول إلى المدينة عبر المنفذ الذي يسيطر عليه الجصَّاصون. وسرعان ما تم الاستيلاء على الموصل، ودخلها الأمير مودود فأشاع فيها الأمن، وأرسل من ينادي بأن يعود الناس إلى دورهم وأملاكهم بعد المحنة والتشريد الذي أصابهم على يد أنصار جاولي وزوجته. وقد اعتصمت هذه في القلعة طيلة ثمانية أيام، وأخذت تراسل مودود طالبةً منه أن يفسح لها طريقاً للخروج وأن يعطيها الأمان، فأجابها مودود إلى طلبها، ومن ثَمَّ غادرت الموصل حاملة الكثير مما استولت عليه[1].

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٢-١٧٤، الباهر ص١٦، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٠، أبو شامة: الروضتين ١/ ٦٧-٦٨، الفارقي: تاريخ ص٢٧٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣١، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٢٨-٢٩، ابن خلدون ٥/ ٣٩-٤١.

مودود بن التونتكين
٥٠٢ ـ ٥٠٧ هـ

بدأ مودود حكم الموصل وأعمالها باتباع سياسة حازمة إزاء أنصار جاولي، وأخرى لينة عادلة رقيقة إزاء السكان. فقتل كثيراً من أصحاب جاولي، ووجه من بقي منهم إلى السلطان بما يحملونه من أموال ليرى فيهم رأيه[(١)].

وشهدت الموصل ـ بانتهاء تمرد جاولي ـ عهداً جديداً من الاستقرار الداخلي بسبب عدم نزعة الأمير الجديد إلى التمرد أو السعي إلى الانفصال عن طاعة السلطان السلجوقي. وقد عرف عن مودود أنه مجاهد من الطراز الأول، صبَّ جلَّ قواه وتفكيره في ميدان الجهاد، وكانت معظم غزواته ضد الصليبيين بأمر من السلطان[(٢)]، بل إن انطلاقه ـ في البدء ـ إلى الموصل حاملاً الأمر السلطاني بجهاد الصليبيين وانتزاع الموصل من يد جاولي في طريقه[(٣)] يوحي بأن مودوداً لم يكن والياً لمدينة الموصل وأعمالها بقدر ما كان قائداً عسكرياً وجهه السلطان لقتال الصليبيين على أن يتخذ الموصل قاعدة لحركاته بسبب موقعها الاستراتيجي الممتاز بوجه الصليبيين الزاحفين صوب الشرق. ومنذ هذه الفترة غدت الموصل ـ أكثر

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٠.

(٢) المصدر السابق ص١٦٩-١٧١، ١٧٤-١٧٨، ١٨٧، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٢-١٨٣، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٥٤-١٥٦، ١٥٨-١٦١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٩٩، ٢٠١، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٧٣، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣٥-٣٦.

(٣) الكامل ١٠/ ١٧١، ابن القلانسي، تاريخ دمشق ص١٦١.

من ذي قبل ـ منجماً لقوى عسكرية كثيرة ولقيادات محنكة وجَّهت قواها ـ بتنظيم دقيق وعقد محالفات مع أمراء المنطقة ـ من أجل إيقاف الخطر الصليبي عند حده[١].

ساس مودود رعيته بالعدل والإنصاف، والتزم بتعاليم الدين، ونظم الصدقات، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وقد آتت سياسته هذه أكلها فشاع الخير في كل مكان من أرجاء ولايته، وقد انعكست سياسته السمحة هذه على علاقاته بالأمراء والحكام في الداخل والخارج، تلك العلاقات التي سادها الإخلاص والوفاء، وكان مودود يضحي ـ في سبيل ذلك ـ أحياناً ببعض ممتلكاته. فقد وهب حران ـ مثلاً ـ إثر استيلائه عليها عام ٥٠٣هـ للأمير الأرتقي إيلغازي بن أرتق أمير ماردين[٢]. كما أنشأ مودود علاقة ودية مع طغتكين أمير دمشق لتعزيز الجبهة الإسلامية ضد الصليبيّين. وقد التحق به في الموصل كثير من الأمراء؛ منهم بدران بن صدقة المزيدي صاحب الحلة الذي كان السلطان محمد قد قتل أباه، فأكرم مودود مثواه وأحسن صحبته[٣]. كما اتصل به الأمير عماد الدين زنكي ومجموعة من الأمراء انشقوا عن جاولي بعد عصيانه. وقد عرف مودود لزنكي هذا الموقف، فضلاً عما كان يكنه لأبيه آق سنقر من تقدير، وما كان يتميز به زنكي نفسه من عقل وشجاعة، مما دفع مودود إلى منحه مزيداً من الإقطاعات وإشراكه معه في حروبه ضد الصليبيين[٤].

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ١٧٠-١٧١، ١٧٤-١٧٨، ١٨٧، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٥٤-١٥٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣٦-٣٧. وانظر القسم الثاني من هذا البحث: ملاحظة: (٦٣)، ابن القلانسي ص١٨٨.

(٢) ابن القلانسي ص١٨٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٨.

(٤) ابن الأثير: الباهر ص١٦-١٧، أبو شامة: الروضتين ١/ ٦٧-٦٨.

وفي عام ٥٠٥هـ قام السلطان محمد بتسليم ولده مسعود إلى الأمير مودود ليشرف على تربيته وليسهم ـ ابن السلطان ـ معه في حروبه ضد الصليبيين[١]. ولكن العلاقة بين مودود والسلطان محمد رغم هذا كله لم تخل من اضطراب وعدم استقرار بما كان يدسه حسّاد مودود ومنافسوه لدى السلطان بأنه عازم على العصيان، وأنه قد غدا يداً واحدة مع طغتكين أمير الشام دون اهتمام حقيقي بمركز السلطان. ولكن مودود لم يدع السلطان يرتاب في نواياه، إذ إنه سرعان ما أرسل عام ٥٠٦هـ ولده وزوجته ليعلنا للسلطان إخلاص مودود وبراءته ويعتذرا له عما رمي به، ويعلماه بأنه باق على ما ألف منه السلطان من الطاعة والمناصحة في العمل والاهتمام بالجهاد[٢].

ولم تكن ظنون السلطان محمد باطلة كلها، فالعلاقة بين مودود وبين حليفه طغتكين أمير دمشق بلغت درجة كبيرة من القوة والاستعداد والتمكُّن، حتى إنهما عزما على الميل إلى الملك رضوان بن تتش السلجوقي صاحب حلب وإقامة الخطبة له، ومن ثم استغلال اسمه كواجهة رسمية يفرضان من ورائها سيطرتهما الفعلية على بلاد الموصل والشام، ويكونان ـ إذ ذاك ـ أكثر تمكُّناً في الجهاد ضد الصليبيين إذ سيقودان القتال بأنفسهما مباشرة، دون انتظار لأوامر تأتي من السلطان. إلَّا أن تردُّد رضوان وعدم تقديم المساعدات العسكرية والمالية التي التزم بها إزاء حليفيه في جهادهم للصليبيين أبطل خطة مودود وحليفه طغتكين، فعدلا عما كانا عزما عليه، وعادا من جديد إلى توثيق علاقاتهما بالسلطان[٣].

(١) الأصفهاني: آل سلجوق ص١٥٨-١٥٩.
(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص ١٨٤.
(٣) المصدر السابق ص١٨٤-١٨٦.

في هذه العقود الحاسمة من تاريخ المسلمين ازداد نشاط الباطنية وقاموا بحركة اغتيالات واسعة النطاق ضد مناوئيهم، كان الأمير مودود من ضحاياها. فإنه بعد عودته إلى دمشق مع حليفه طغتكين إثر اجتيازهما سلسلة معارك موفقة ضد الصليبيين في مناطق طبرية وجنوبي الشام، أذن مودود للجنود في التفرق إلى بلادهم لأخذ قسط من الراحة، وعزم هو على البقاء في دمشق ليكون قريباً من العدو، ولينتظر ما يصدر إليه السلطان من أوامر وما يبعث به إليه من رسائل وخطط يعمل على هديها. وكانت عودة مودود وحليفه إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول ٥٠٧ هـ وقد بالغ طغتكين في إكرام مودود وتولى خدمته بنفسه. وكانا يخرجان سوية إلى صلاة الجمعة في المسجد الأموي الجامع في دمشق. فلما كان يوم الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر سنة ٥٠٧هـ دخل مودود ومضيفه إلى الجامع على عادتهما، فلما قضيت الصلاة غادرا المسجد يتقدمهما عدد كبير من الحراس، وتزاحم الناس حولهما لمشاهدة قادتهم المنتصرين. كان مودود وطغتكين يسيران ببطء، فلما وصلا صحن الجامع وثب رجل لا يحفل به من بين الناس، واقترب من مودود كأنه يريد أن يدعو له ويطلب صدقته. وبسرعة أمسك هذا الرجل بحافة قباء مودود وضربه بخنجره أسفل سُرَّته ضربتين، وما لبث الحراس أن انقضوا على الرجل وأطاحوا برأسه بسيوفهم الأمر الذي لم يتح لهم معرفة ملامح الرجل. أما مودود فقد سار متماسكاً على نفسه حتى الباب الشمالي للجامع؛ حيث انهارت قواه فسقط على الأرض، وحمل من هناك إلى دار الإمارة بصحبة طغتكين. واضطرب الناس اضطراباً شديداً، ثم اطمأنوا بعض الشيء لدى مشاهدته وهو يمشي وسط الجامع قبل أن يستنفد قواه، وظنوا أنه قد خرج سالماً من المحاولة.

ولم تجْدِ محاولات الأطباء معه شيئاً؛ إذ توفي بعد ساعات يسيرة من نفس اليوم، فقلق طغتكين لمقتل حليفه وتملكه الحزن والأسف، وعمت مشاعر الأسى الحزين هذه الأجناد والناس. وحملت جثة مودود إلى بغداد، وتفرق جنده وأصحابه عائدين إلى بلادهم[1].



(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٨٧-١٨٨، سبط ابن الجوري: مرآة الزمان ٨/ ٥٠-٥١. ابن العبري: مختصر ص٩٩، ويخطئ كل من الفارقي: تاريخ ص٢٨٠، وابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٦٧ وابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٧٣ في تحديد تاريخ مقتله. ويذهب كل من ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٧، ١٨٩، والأصفهاني: آل سلجوق ص١٥٨-١٥٩، وأبو الفدا: المختصر ٤/ ١٤٥، وابن خلدون ٥/ ٤٢، ١٥٣، ١٩٥ إلى أن طغتكين خاف من مودود على دمشق فدسَّ له السم، وأن السلطان محمد اتهم طغتكين بقتل مودود. (انظر القسم الثاني من هذا البحث حول تفنيد هذا الرأي).

جيوش بك
٥٠٧ هـ (الولاية الأولى)

ما أن علم السلطان محمد بمقتل مودود حتى أصدر أمره إلى الأمير جيوش بك بتولي الموصل وأعمالها، وأرسل معه ولده الملك مسعود وفق التقليد الذي يقضي بتسليم أبناء السلاطين إلى كبار الأمراء والأتابكة لكي يشرفوا على تربيتهم وتعليمهم مهام الحكم وأعباء المسؤولية. وقد قام السلطان في نفس الوقت بتجهيز الأمير آق سنقر البرسقي بقوات حاشدة وتسييره لقتال الصليبيين(١).

ولم تطل فترة حكم جيوش بك، فلم تزد عن عدة أشهر، ويبدو أنها كانت فترة انتقالية ريثما يعزز البرسقي الانتصارات التي أحرزها سلفه ضد الصليبيين، ومن ثم يتسلم مهام الحكم في الموصل، بما عرف عنه من خبرات إدارية أيام كان شحنة للعراق(٢).



(١) ابن الأثير: الباهر ص١٩-٢٠، أبو شامة: الروضتين ١/ ٦٩، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٢٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٤٨، ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٤٣. والشحنة: وظيفة استحدثها السلاجقة، ويعين صاحبها من قبل السلطان، وهي أشبه ما تكون بوظيفة (المحافظ) في عصرنا الحاضر، يتمتع شاغلها بسلطات بوليسية وإدارية، وهو المسؤول عن إدارة المنطقة وملاحقة الخارجين عن النظام: حسين أمين، نظام الحكم في العصر السلجوقي، مجلة سومر، مجلد ٢٠، سنة ١٩٦٤م.

آق سنقر البرسقي
٥٠٧ ـ ٥٠٩ هـ (الولاية الأولى)

وفي عام ٥٠٨هـ توجه البرسقي إلى الموصل ـ بأمر من السلطان ـ على رأس جيش كبير، يصحبه الملك مسعود بن السلطان. وأوصاه السلطان بألا يغفل أمر الجهاد، وكتب إلى سائر الأمراء بطاعته، فوصل إلى الموصل وانضمت إليه عساكرها، وغادرها صوب جزيرة ابن عمر فسلمها إليه حاكمها السابق. ثم توجه البرسقي ـ بعد ذلك ـ إلى ديار بكر لإرغام الأراتقة على إمداده بقواتهم قبل أن يبدأ قتاله للصليبيين، وربما قصد من ذلك تهديدهم وإشعارهم بقوة مركزه، وقد أمده بعض أمراء الأراتقة بعدد من قواتهم، إلَّا أن أسلوب البرسقي الاستفزازي أشعل نار الحرب بين الطرفين، ودارت معركة قاسية بينهما في أواخر عام ٥٠٨هـ، انتهت بانتصار الأراتقة وهزيمة البرسقي(١).




(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩، الأصفهاني: آل سلجوق ص١٥٨-١٥٩، الحسيني: الدولة السلجوقية ص١٠٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٥٢، ابن الوردي: تاريخ ٢/ ٢٢، ابن خلدون ٥/ ٤٢.

جيوش بك
٥٠٩ ــ ٥١٤ هـ (الولاية الثانية)

ويظهر أن الشك وعدم الاطمئنان إلى الولاة قد سيطر على السلطان محمد في المرحلة الأخيرة من حكمه، هذا الشك الذي دفع كلّاً من إيلغازي الأرتقي أمير ماردين، وطغتكين أمير دمشق إلى الخروج عن طاعته علانية والاتجاه إلى التحالف مع الصليبيين[1]، إذ أنه سرعان ما أصدر أمره عام ٥٠٩هـ بتولية الموصل وأعمالها لجيوش بك للمرة الثانية، وإبعاد البرسقي الذي التجأ إلى إقطاعه في الرحبة؛ حيث أقام هناك منعزلاً شبه منفي[2]. وأغلب الظن أن الجهود التي بذلها جيوش بك في حروبه ضد طغتكين وإيلغازي الخارجين عن طاعة السلطان هي التي رشحته لتولي الموصل ثانية، فضلاً عن كونه أتابكاً (مربياً) لابنه الملك مسعود.

بدأ جيوش بك بإحلال الأمن والاستقرار محل الفوضى التي سادت الموصل وأعمالها في الفترة الأخيرة؛ حيث كان عدد من العشائر قد أكثروا الفساد وقاموا بإنشاء قلاع خاصة بهم في أماكن شتى اتخذوها مراكز يحتمون بها إثر هجماتهم المستمرة، مما أدى إلى فقدان الأمن عبر طرق المواصلات. وضاق الناس ذرعاً بهذه الأوضاع. فأسرع جيوش بك بمهاجمة تلك القلاع المنتشرة في الجهات الشمالية من الموصل، وراحت تسقط واحدةً تلو الأخرى. وأخذ يطارد قطاع الطرق بنفسه، فخافوه وهربوا بين

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩، ١٩٢-١٩٣، ابن خلدون ٥/ ٢١٣.
R. Grousset: Histoire des Croisades 1/491-494. 506-511. S. Runciman: Ahistory of the Crusades. 11/126 - 129, 133.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٤، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٤٨، ابن خلدون ٥/ ٤٣.

يديه في الجبال والمضائق والشعاب، وتمكن أخيراً من القضاء عليهم، فأمنت الطرق وعاد الناس تجاراً ومزارعين إلى أعمالهم، وألقى قطاع الطرق السلاح، ولم يجسروا على حمله ثانية طيلة عهد جيوش بك لما كان يتميز به من مهابة وعزيمة ماضية[(١)].

كان طموح جيوش بك بعيد الحدود، وكان يأمل في تنصيب الملك مسعود ـ الذي كلف جيوش بك بتربيته ـ على عرش السلطنة كي يسيطر هو فعلياً على مقدرات الدولة السلجوقية باسمه. وقد واتته الظروف عام ٥١٢هـ لتحقيق هذا الأمل. ففي هذا العام توفي السلطان محمد وانتقلت السلطة إلى ابنه محمود. فاتفق جيوش بك مع الملك مسعود على التوجه إلى بغداد والاستيلاء عليها قبل أن يتمكن السلطان الجديد منها، وقاما بتجهيز قواتهما لهذا الغرض، وقد انضم إليهما عدد من كبار الأمراء؛ كصاحب أربل وأمير سنجار وغيرهما. ومن ثم تقدَّموا جميعاً للاستيلاء على بغداد، فحاول البرسقي ـ الذي كان السلطان محمد قد عينه شحنة على العراق ـ الدفاع عن المدينة نيابة عن السلطان الجديد محمود. إلَّا أن الملك مسعود استطاع أن يستميله ويضمّه إلى صفوفه عندما أعلمه أنهم إنما جاؤوا نجدة له ضد أمير الحلة الذي كان البرسقي قد قرر إجلاءه عنها، فسُرَّ البرسقي لهذه النجدة وأتاح للملك مسعود أن ينزل في دار المملكة في بغداد. وعندما سمع السلطان محمود بذلك أرسل أحد أمرائه لتثبيت سلطته هناك، وإبعاد مسعود وجيوش بك عنها. وتمكن الطرفان أخيراً من عقد صلح دون أن ينشب أيّ قتال بينهما[(٢)].

عاد جيوش بك والملك مسعود وقواتهما إلى الموصل، وبالرغم مما حدث فإن السلطان محمود أقر جيوش بك على الموصل ولم يلحق أي أذى

---

(١) الكامل ١٠/٢٠٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/٢٠٣-٢٠٥، ابن خلدون ٥/٤٥-٤٦.

بأخيه الملك مسعود[١]. ولعل الأخير عرف لأخيه هذا الصنيع فبقي مطيعاً له حتى عام ٥١٤هـ، وحينئذ أعلن مع أتابكه جيوش بك العصيان ثانية، وشجعهما على ذلك مكاتبات دبيس بن صدقة أمير الحلة التي وعد فيها بتقديم مساعدته للملك مسعود في سعيه لطلب السلطنة[٢]. وكان غرض دبيس من ذلك إحداث انشقاق في الجبهة السلجوقية يتيح له النفاذ منه واستغلاله للحصول على مكاسب جديدة، كما حصل لأبيه صدقة أثناء الصراع بين السلطانين محمد وبركياروق.

قرر جيوش بك والملك مسعود نقل المعركة هذه المرة إلى بلاد فارس نفسها، وتوجيه الضربة ضد السلطان محمود مباشرة، تحاشياً من الوقوع في أخطاء التمرّد السابق، فضلاً عن إمكان استخدام آذربيجان التابعة لجيوش بك كقاعدة للهجوم على بقية بلاد فارس. وعندما بلغ السلطان محمود نبأ الاستعداد للتمرد أرسل إلى جيوش بك ومسعود يرغبهما ويعدهما بالإحسان إن عادا إلى الطاعة، ويتهدَّدهما إن أصرَّا على العصيان، فلم يستجيبا له، وقوي أملهما في تحقيق ما استهدفاه عندما بلغهما تفرق الجند عن السلطان محمود. فأعلنا العصيان وأقيمت الخطبة للملك مسعود، ثم تقدَّما لمهاجمة السلطان محمود منتهزين فرصة تفرق معظم جنده عنه. فقام هذا بحشد من تمكن حشده من قواته استعداداً للقتال. وكان اللقاء قريباً من أسد آباد في ربيع الأول، واستمر طوال النهار وانتهى بهزيمة مسعود وجيوش بك وأسر جماعة من أمرائهما. وقد تمكن مسعود من الاختفاء في منطقة قريبة وأرسل من هناك إلى أخيه يطلب الأمان، فأرسل إليه هذا أميره البرسقي ليعلمه أنه قد استجاب لطلبه، فاعتذر الملك مسعود لأخيه عما بدر منه فقبل هذا عذره

(١) ابن الأثير: الباهر ص٢٢.

(٢) الكامل ١٠/٢١٣-٢١٤، الباهر ص٢٢-٢٣، أبو شامة: الروضتين ١/٧٢-٧٣، الأصفهاني: آل سلجوق ص١٢٢، الحسيني: الدولة السلجوقية ص ٩٦-٩٧.

وأشركه في مهام حكمه، أما جيوش بك فإنه توغل شمالاً، وهناك أخذ ينتظر الملك مسعود، ولما يئس من لقائه اتجه صوب الموصل وجمع الغلال والمقاتلين واستعد للحصار. ولكن ما أن بلغه خبر اتصال مسعود بأخيه السلطان حتى أيقن ألَّا مقام له في الموصل، فسار هو الآخر إلى السلطان طالباً الأمان، فأمَّنه السلطان وأكرمه وأقرَّه على آذربيجان بعد أن اقتطع منه الموصل وأعمالها(١).

وما كان لقوات جيوش بك أن تندحر على كثرتها وتفوقها لولا أن لعبت عاطفة الأخوة دورها في المعركة. إذ ما إن أبصر مسعود أخاه السلطان حتى مال إليه معرضاً معسكره للهزيمة المنكرة والنهب، وقد كان هذا الموقف من مسعود من أسباب إحسان السلطان محمود إليه وإشراكه معه في الحكم، كما أنه رتَّب شخصاً آخر لأتابكته وخدمته(٢).




(١) ابن الأثير: الباهر ص٢٢-٢٣، الكامل ١٠/٢١٣-٢١٤، الأصفهاني: آل سلجوق ص١٢٢، الحسيني: الدولة السلجوقية ص٩٦-٩٧، أبو شامة: الروضتين ١/ ٧٢-٧٣، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٢٩-٣٠، ابن خلدون ٥/ ٤٩-٥٠.

(٢) الأصفهاني: آل سلجوق ص١٢٢، الحسيني: الدولة السلجوقية ص٩٦-٩٧.

آق سنقر البرسقي
٥١٥ ـ ٥٢٠ هـ (الولاية الثانية)

ويظهر أن الموصل وأعمالها بقيت عدة أشهر بدون والٍ، وهي الأشهر المتبقية من عام ٤١٤هـ والتي أعقبت مغادرة جيوش بك الأخيرة لها. وفي عام ٥١٥هـ أصدر السلطان محمود أمره بتولية آق سنقر البرسقي على الموصل وأعمالها (للمرة الثانية). وكان من أسباب هذه التولية أن البرسقي عمل إلى جانب السلطان محمود في معظم حروبه، وكان مخلصاً له، وقد لعب دوراً كبيراً في المعركة الأخيرة التي وقعت بين السلطان محمود وأخيه مسعود، حتى إن البرسقي هو الذي قام بدور الوساطة بين الأخوين بعيد انتهاء المعركة. وقد اتبع السلطان محمود التقليد السابق لدى إعلان تولية أحد الأمراء على الموصل إذ أمره بجهاد الصليبيين واسترداد البلاد منهم، كما أمر سائر الأمراء بطاعته، فسار البرسقي إلى الموصل على رأس جيش كبير، وأقام فيها بعض الوقت يدبر أمورها ويصلح أحوالها[١].

امتاز البرسقي ـ أكثر من غيره ـ بالنشاط السياسي والحركة السريعة، فهو تارة في الشام يجاهد الصليبيين وتارة أخرى في بغداد وجنوب العراق يقاتل الخارجين عن طاعة السلطان والخليفة العباسي، وتارة ثالثة على مشارف حلب مستجيباً لنداء الحلبيين بإنقاذهم من الأوضاع الاقتصادية والسياسية السيئة التي تردَّوا فيها خلال مقاومتهم للهجمات الصليبية. وقد استطاع البرسقي أن يكسب ود الأمراء المحليين وعلى رأسهم طغتكين صاحب

---

(١) ابن الأثير: الباهر ص٢٤، الكامل ١٠/ ٢٢٣-٢٢٤، أبو شامة: الروضتين ١/ ٧٣، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٣٠، ابن العبري: مختصر ص٢٠٢، ابن الوردي: تاريخ ٢/ ٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٨٨، ابن خلدون ٥/ ٥٠.

دمشق[١]، كما اكتسب عطف الخليفة العباسي ـ حيناً من الزمن ـ باشتراكه إلى جانبه في حروبه ضد المزيديين في الحلة، فضلاً عن أنه اكتسب عطف الأهالي سواءً في الموصل حيث مقر ولايته، أم في المنطقة ـ بصورة عامة ـ حيث اشتهر كقائد من قواد الجهاد ضد الصليبيين.

وقد أدى ازدواج وظيفته كشحنة على العراق ووال على الموصل في نفس الوقت إلى عدم الاستقرار في مقر ولايته وتفهم مشاكلها وتطويرها، تلك الأمور التي لم يكرس جهوده لها إلا بعد إقالته من الشحنكية التي كانت تستدعي دائماً وجوده في بغداد للقضاء على الفتن الداخلية والاضطرابات باعتباره نائباً عن السلطان في العراق. وكان البرسقي قد ولي منصب الشحنكية في عام ٤٩٨هـ من قبل السلطان محمد، وقد اتصف منذ ذلك الوقت بالخير والدين وحسن العهد، ثم عزل عن منصبه عام ٥٠٢هـ بسبب الدسائس وأطماع السلطان[٢]، وأعيد إليها عام ٥١٢هـ من قبل السلطان محمد نفسه[٣]، وأقيل ثانية عام ٥١٣هـ وأعيد عام ٥١٦هـ ـ بعد توليه الموصل ـ، وبقي حتى عام ٥١٨هـ، حيث عزل عن منصب الشحنكية بصورة نهائية بسبب نفور الخليفة منه وطلبه من السلطان عزله وإعادته إلى الموصل. وقد استجاب السلطان إلى ذلك وأرسل إلى البرسقي يأمره بالعودة إلى الموصل وتركيز اهتمامه في جهاد الصليبيّين، وأرسل برفقته ابنه الصغير ليشرف على تربيته وفق التقاليد السلجوقية المتبعة[٤].

لعب البرسقي الدور الأول في إبعاد خطر بني مزيد عن بغداد وإقرار الأمن فيها، كما تمكّن من فرض سيطرته على بعض المدن المهمة في

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٩٧-١٩٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٤٨، ١٧٨، ابن الجوزي: المنتظم ٩/١٤٣.

(٣) ابن الوردي: تاريخ ٢/ ٢٤، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٥٠.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٤٩، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٦-٢٣٧، الباهر ص٢٧، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١١٢، ابن خلدون ٥/ ٥٢.

جنوبي العراق كواسط والبصرة، وأعاد إليهما الاستقرار والهدوء[١] وقد استغرقت هذه الأعمال والحروب من وقته أكثر من عام، ولو أنه لم يُقَلْ من منصبه كشحنة عام ٥١٨هـ ـ كما سبق ذكره ـ لما استطاع التفرغ لمشاكل ولايته وجهاد الصليبيين والاستجابة لاستغاثة الحلبيين[٢].

والحق أن أهمَّ ما أنجزه البرسقي بعد عودته من بغداد ليس قتاله الصليبيين، وإنما استلامه شؤون الحكم في حلب وحله لمشاكلها وضمها إلى الموصل، الأمر الذي أقام وحدة بين البلدين كان لها ـ فيما بعد ـ أبعد الأثر في الصراع الإسلامي ـ الصليبي[٣].

كان البرسقي شبيهاً في سيرته وعدله بمودود بن التونتكين، فكان ـ كما يصفه المؤرخون ـ حميد الأخلاق، شديد التدين، محباً للخير وأهله، مكرماً للفقهاء والصالحين[٤]، وكان شجاعاً نال احترام وتقدير الخلفاء والملوك[٥]، ليناً، حسن المعاشرة، كثير الصلاة[٦]، عالي الهمة[٧]، وبذا أجمع معظم المؤرخين على أنه كان من خيار الولاة[٨].

وكسلفه مودود ـ أيضاً ـ راح البرسقي ضحية النشاط الباطني؛ حيث كان الباطنية قد بدؤوا حملة اغتيالات واسعة لكبار الشخصيات الإسلامية السنية،

---

(١) للاطلاع على تفاصيل أعمال البرسقي الحربية والإدارية في بغداد وجنوبي العراق انظر: ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ٢٣١، ٢٤٢-٢٤٣، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٠-٢٣٢، الباهر ص٢٤-٢٧.

(٢) انظر: ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٠، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ٢١٦.

(٣) للاطلاع على تفاصيل دخول البرسقي حلب انظر: القسم الثاني من هذا البحث.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠.

(٦) ابن الأثير: الباهر ص٣١-٣٢.

(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٦١.

(٨) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤١-٢٤٢، ابن الشحنة: روضة المناظر ص٢٠٤.

وبلغت هذه الحملة أوجها في القرن السادس الهجري. وكانت الباطنية تشكل ـ إذن ـ مصدر الخطر الوحيد ضد البرسقي. وقد عرف هو ذلك منذ البداية، فكان على غاية من التيقظ لهم والتحفظ منهم، وكان يحيط نفسه بعدد كبير من الحرس المسلحين الذين كانوا دائماً على أهبة الاستعداد[(١)]، كما كان يلبس درعا من حديد[(٢)]. وقد جهد البرسقي في الحد من خطر الباطنية عن طريق التصدي لهم واستئصال شأفتهم وتتبعهم في كل مكان، وقد تمكن من قتل عدد منهم[(٣)]..

رغم كل هذه الاحتياطات والإجراءات تمكن الباطنية الذين تمرَّسوا على الاغتيال من بغيتهم؛ ففي التاسع من ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ توجه البرسقي إلى الجامع العتيق في الموصل لأداء صلاة الجمعة، وقصد المنبر، فلما دنا منه وثب عليه ثمانية أشخاص متزيين بزي الزهاد، وأثخنوه ضرباً وطعناً، بعد أن تمكن هو وحراسه من قتل بعضهم، ثم حمل جريحاً ومات في نفس اليوم. وتم قتل جميع من اشترك في الاغتيال فيما عدا واحداً منهم تمكن من الهرب إلى الشام. وكان البرسقي قد رأى في منامه ـ في الليلة السابقة ـ بأن مجموعة من الكلاب السوداء هاجمته، وقص رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بعدم الخروج من داره أياماً، ولكنه رفض اقتراحهم وقال: لا أترك ـ صلاة ـ الجمعة لشيء أبداً!! وكان من عادته أن يحضر صلاة الجمعة مع عامة الناس[(٤)].

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١١٦-١١٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ٢٣٤-٢٣٦.

(٣) ابن خلكان: وفيات الاعيان ١/ ٢١٨-٢١٩، ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٦١.

(٤) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤١، الباهر ص٣١-٣٢، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ٢٣٤-٢٣٦، أبو شامة: الروضتين ١/ ٧٤-٧٥ ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٣١-٣٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١١٦-١١٧، ابن الجوزي: =

ويلقى عماد الدين الأصفهاني ضوءاً على الدوافع المباشرة لاغتيال البرسقي من قبل الباطنية، إذ يشير إلى العداء المستحكم بينه وبين الدركزيني (الباطني) وزير السلطان السلجوقي محمد، الذي عمل جاهداً ليقنع السلطان بعزل البرسقي فلم ينجح في مسعاه، فاتفق مع الباطنية على اغتياله[١]. وموقف الدركزيني يعيدنا بدوره إلى موقف الباطنية العام من زعماء السنة كالبرسقي؛ هذا الموقف الذي تميز بالعداء والحقد والرغبة في الانتقام، مما كان له أسوأ الأثر على مجرى الصراع بين المسلمين والصليبيين.

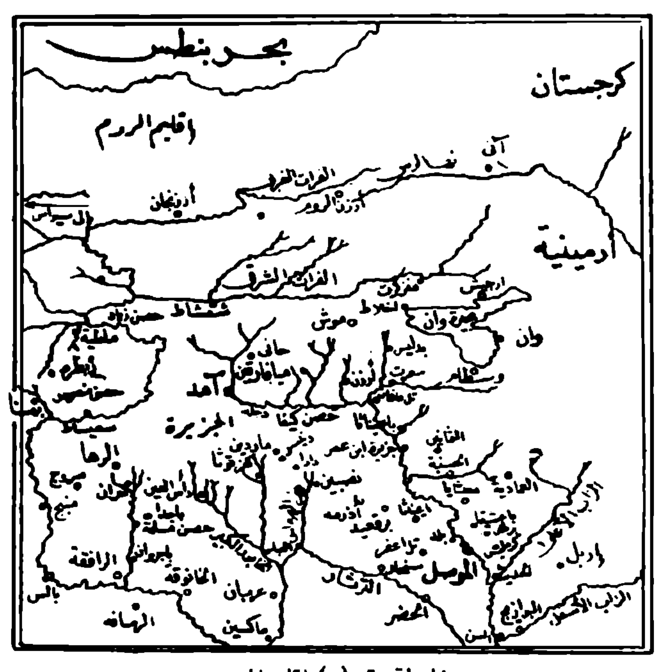
كيفما كان الأمر، فإن مقتل البرسقي أصاب المسلمين عامة والموصل خاصة بخسارة فادحة، حيث فقد أهالي الموصل باغتياله والياً من نوع ممتاز، قوي الشخصية، عادلاً في الرعية، ملتزماً تعاليم دينه، فلا ريب أن يحزنوا عليه ويأسفوا لفقده[٢]، ويستدعوا ابنه عز الدين مسعود ليحل محله.

وأغلب الظن أن البرسقي كان الوالي الوحيد للموصل ـ منذ بدء عهد الولاة عام ٤٨٩هـ وحتى تولى زنكي ـ لم يطمح إلى مخالفة السلطان السلجوقي والاستقلال عن سلطته؛ وربما كان ذلك بحكم منصبه الأول كشحنةٍ للعراق ـ أي: كنائب مباشر للسلطان فيه ـ وبحكم حبه للسلطان وإخلاصه لوحدة الدولة السلجوقية إزاء خطر التفتت والانقسام.

= المنتظم ٩/ ٢٤٩، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٩٥، (والثلاثة الأخيرون يخطئون في جعل الحادثة عام ٥١٩هـ). وانظر: الأصفهاني: آل سلجوق ص١٣٢، وابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٢١٨-٢١٩، وابن العبري: مختصر ص٢٠٢.

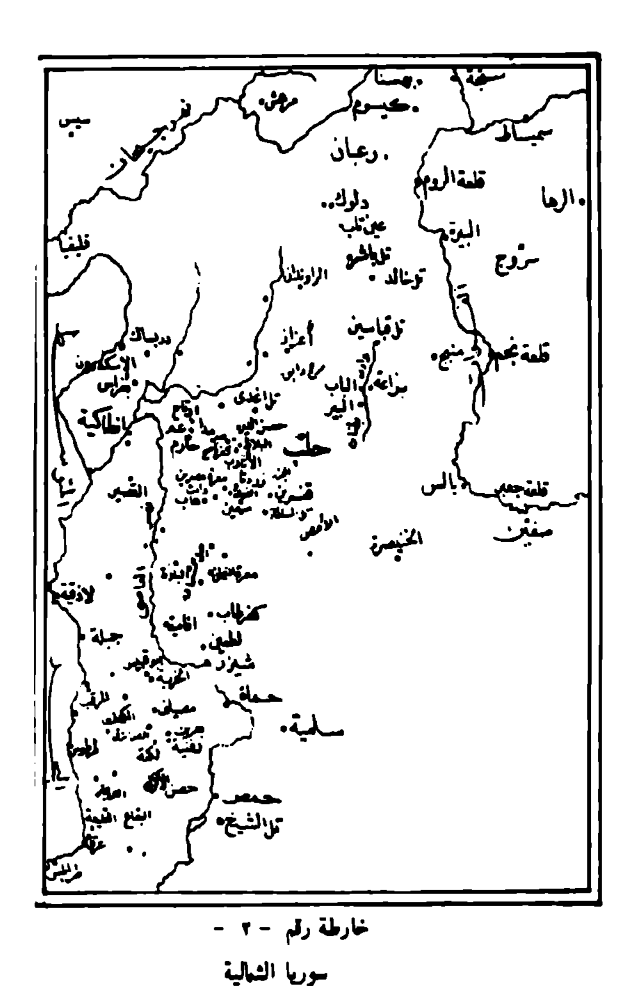
(١) تاريخ آل سلجوق ص١٣٢.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١١٦-١١٧، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٢٣٠.



خارطة رقم (١) إقليم الجزيرة

كي. لسترج: بلدان الخلافة الشرقية



خارطة رقم - ٢ -

سوريا الشمالية

عن: K. M. Setton, A History of The Crusades. Vol. I:

عز الدين مسعود بن البرسقي
٥٢٠ ـ ٥٢١ هـ

كان عز الدين ينوب عن أبيه في حكم حلب، وعندما ورد خبر اغتيال أبيه أرسل إلى السلطان السلجوقي يطلب منه أن يقرَّه على البلاد التي كانت لأبيه، فأجابه السلطان وكتب له منشوراً بذلك، ومن ثَمَّ دخل عز الدين الموصل في مطلع ذي الحجة عام ٥٢٠[١]، فأطاعه الأمراء والأجناد، وجد في تنظيم شؤون الولاية، وساسها سياسة مرضية، وأحسن إلى أصحاب أبيه، ثم غادر الموصل لمقابلة السلطان محمود وتأكيد طاعته له، فأحسن هذا إليه وأعاده إلى الموصل، وقد اعتمد عز الدين في إدارة البلاد على الأمير جاولي، أحد مماليك أبيه الأتراك، الذي كان يتصف هو الآخر بالدراية وحسن السيرة، ومن ثم سارت الأمور بانتظام تام ولم يختلف على الوالي الجديد أي من سكان ولايته الواسعة. وقد حاول عز الدين بسياسته هذه اتباع سبيل أبيه، كما أنه استفاد من كتَّابه وأجهزته الإدارية[٢].

وكان أول ما اهتم به هذا الوالي هو التحقيق في قضية اغتيال أبيه والانتقام من قتلته، فبدأ بالبحث عن الباطنية واستقصاء أخبارهم، فقيل له: إن بعضهم كانوا يجلسون إلى أحد أساكفة الموصل، فأحضر هذا الإسكافي

---

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ٢٣٦-٢٣٨، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٢-٢٤٣، الباهر ص٣١-٣٢، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، ٢١٦-٢١٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٢١٨-٢١٩، ويخطئ ابن كثير في البداية والنهاية ١٢/ ١٩٥ في جعل هذا الحادث سنة ٥١٩هـ.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٤، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٢-٢٤٣، الباهر ص٣١-٣٢، أبو شامة: الروضتين ١/ ٧٤-٧٥.

ووعده بالإحسان إن أقرَّ عنهم، ولكنه لم يقرّ، فهدد بالقتل، وآنذاك اعترف بأن عدداً من الباطنية كانوا قد قدموا الموصل منذ عدة سنين لقتل البرسقي وأنهم لم يتمكنوا من تحقيق مهمتهم إلَّا عام ٥٢٠هـ، فمثّل بالإسكافي إلى أن مات[١]. ولم يكن لهذا التحقيق نتيجة تذكر، إذ إنَّ معظم المشتركين في الاغتيال كانوا قد قتلوا وقتها، وفرَّ الآخرون ولم يبق في الموصل أحد منهم.

ولما استتب الأمر لعز الدين مسعود في الموصل وقويت شوكته واستقامت أمور ولايته تملكه الغرور لحداثة سنه، وحدثته نفسه بمنازلة دمشق وغيرها من بلاد الشام والاستيلاء عليها وإغفال جهاد الصليبيين. وكان عز الدين يظن أن قتلة أبيه قوم من أهل حماة، فأضمر للشام وأهله شراً عظيماً، وأعماه الحقد عن سياسته الرشيدة التي بدأ بها عهد ولايته. وقد بلغ طغتكين أمير دمشق نبأ استعداد والي الموصل لمهاجمة بلاده، فعزم على التهيؤ له والتوجه لقتاله لدى اقترابه من الأعمال الشامية. وكان مسعود قد بدأ هجومه بالرحبة وضرب عليها الحصار بعد أن امتنع واليها عن تسليمها؛ واستمر الحصار أياماً اضطر الوالي بعدها إلى التسليم، لولا أن مسعود مات فجأة في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة عام ٥٢١هـ على إثر مرض حاد أصابه أثناء الحصار، وربما كان قد سقي سمّاً قضى عليه. وسرعان ما تفرق جنده عنه واستبيحت أمواله، وقام جماعة من غلمانه بحمل راياته إلى طغتكين ليتقرَّبوا إليه بإهدائها له، فبالغ في إكرامهم واصطفاهم لنفسه[٢].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٢-٢٤٣.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٦-٢١٧، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ٢٣٦-٢٣٨، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٤-٢٤٥، الباهر ص ٣١-٣٢، ابن خلدون ٥/ ٥٥، ابن خلكان: وفيات ١/ ٢١٨-٢١٩.

أخو عز الدين مسعود الأصغر
٥٢١ هـ

لدى وصول خبر وفاة عز الدين إلى الموصل قام بعض أعيانها بتولية أخيه الأصغر (الذي لم تتطرق المصادر لذكر اسمه)، وقام الأمير جاولي بالوصاية عليه وتدبير أمور الولاية، وأرسل إلى السلطان محمود يلتمس تقرير البلاد عليهم والاعتراف الرسمي بالوضع الجديد في الموصل، وشكل وفداً لهذا الغرض برئاسة القاضي بهاء الدين علي بن القاسم الشهرزوري وحاجب صلاح الدين محمد، وأمدهما بأموال كثيرة للاستعانة بها في هذا السبيل[١].

ونلاحظ هنا أن منصب الوالي في الموصل غدا شبه وراثي؛ فعز الدين مسعود أعقب أباه في حكم الموصل، ولما مات نُصِّبَ أخوه في محله بالرغم من صغر سنه. ويبدو أن جاولي سعى لاستغلال الود الذي يكنُّه أهالي الموصل لآل البرسقي، وعمل على تنصيب أخي مسعود لكي يتحكم هو في البلاد باسم الصبي الصغير. ولو لم يتغيَّر مجرى الأحداث بتعيين عماد الدين زنكي على الموصل، إثر الجهود التي بذلها أعضاء الوفد الذي أرسله جاولي إلى بغداد، لافتتحت عائلة البرسقي عهداً جديداً في الموصل، ولسبقت ـ هي ـ آل زنكي بتأسيس إمارة في المنطقة تتمتع باستقلال ذاتي وحكم وراثي.

وهكذا وبتوجّه الوفد نحو بغداد واتفاق أعضائه مع عدد من كبار المسؤولين هناك على السعي من أجل تنحية الصبي ووصيه جاولي وتولية

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٥، الباهر ص٣٢، أبو شامة: الروضتين ١/ ٧٤-٧٥، ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ٣١-٣٢، ابن خلدون ٥/ ٥٥.

الموصل لأمير تؤهله إمكاناته لهذا المنصب، يكون عهد الولاة في الموصل قد انتهى، وبدأت المنطقة تستقبل عهداً جديداً يختلف في كثير من نواحيه عن العهد السابق، سواء في السياسة الخارجية أم في السياسة الداخلية وطبيعة الحكم.




القسم الثاني

الولاة والصليبيون

(الجهاد)

منذ الأيام الأولى لوصول طلائع القوات الصليبية إلى مشارف الجزيرة والشام، بدا أن ولاة الموصل السلاجقة سيلعبون دوراً حاسماً إزاء الخطر الجديد، نظراً لطبيعة موقعهم الحصين بعيداً عن الأخطار المباشرة للهجوم الصليبي، ولكونهم يمثلون حلقة الوصل المباشرة بين القوى السلجوقية التي يتلقون أوامرهم عنها، وبين الإمارات الإسلامية المنتشرة في الجزيرة والشام والتي وقع على عاتقها عبء التصدي للهجوم الجديد. لذا فإنه ما إن رأى ياغي سيان صاحب أنطاكية أن مدينته غدت قاب قوسين أو أدنى من الزحف الصليبي حتى كان كربوقا حاكم الموصل (٤٨٩ ـ ٤٩٥) في مقدمة أولئك الأمراء الذين بعث يستنجد بهم لإيقاف ذلك الزحف قبل أن تحل الكارثة بالمسلمين، ويجد أعداؤهم موطن قدم لهم في بلاد الشام.

ومنذ تلك اللحظة، وحتى ظهور عماد الدين زنكي عام ٥٢١هـ وتأسيسه إمارته الشهيرة في المنطقة، راح ولاة الموصل يدلون بدلوهم في مجرى الصراع العنيف الذي شهدته الجزيرة والشام والذي شبت ناره بين المسلمين والصليبيين. وكان موقف أولئك الولاة يتراوح بين القوة والضعف، استناداً إلى الظروف المرحلية التي كان الصراع يجتازها، وإلى طبيعة العلاقات المتغيرة التي كانت تتحكم في كثير من الأحيان بسياسة الأمراء والحكام المسلمين. فكنا نجد بعض ولاة الموصل يأخذون على عاتقهم مهمة قيادة حركة الجهاد، وتجميع القوى الإسلامية لتحقيق هذا الغرض، ونجد بعضهم الآخر يكتفي بعقد تحالفات متكافئة مع أمراء مسلمين آخرين للعمل المشترك ضد أعدائهم. كما كنا نجد فئة أخرى من الولاة لا يكتفون بالوقوف سلبيين إزاء ما يجري من أحداث، بل إن أحدهم وهو (جاولي سقاو) سعى

للتحالف مع الصليبيين أنفسهم من أجل حماية نفسه من غضب السلطان السلجوقي وأنصاره، أو من أجل تحقيق مكسب شخصي جديد.

وفي كل الأحوال كان ولاة الموصل يمسكون بقلم الأحداث بقوة ليرسموا لها تياراتها ومصائرها فيما عدا تلك السنوات (٥١٣ ـ ٥١٨هـ) التي برز في المنطقة خلالها قادة الأراتقة كقوة رائدة في ميدان الجهاد، وقد جاء ذلك في الوقت الذي كان بعض ولاة الموصل يجتازون خلاله سلسلة من المناورات والحروب السلجوقية، الأمر الذي وضع الموصل في الظل، وعزلها فترة من الزمن عما كان يجري في الأراضي البعيدة عنها من صراع بين المسلمين والصليبيين.




قوام الدولة كربوقا
٤٨٩ ــ ٤٩٥ هـ = ١٠٩٥ ــ ١١٠١ م

ما أن تلقى كربوقا نبأ هجوم الصليبيين على أنطاكية، واستنجاد صاحبها به، حتى جمع عسكراً عظيماً وتوجه صوب الفرات[١]، دون أن يتمهَّل لاستئذان السلطان السلجوقي في تحرّكه الذي قد يجرُّ نتائج حاسمة على الدولة السلجوقية ذاتها. ولقد دلَّت هذه المبادرة من كربوقا على سعة نظره وإدراكه ما لعامل الزمن، وسرعة التحرك، من أثر خطير في مصير أي قتال. لكنه سرعان ما أضاع كسبه هذا عندما توقف أسابيع طوالاً عند أسوار الرها في محاولة لاجتياحها، وقد كان بلدوين قائد الحملة الصليبية في الجزيرة، لا يزال في تل باشر، عندما قدمت إليه سفارة من الرها في مستهل السنة الجديدة (١٠٩٨م = ٤٩١هـ)؛ إذ استبد القلق بتوروس الأرمني حاكم الرها حول وصول الصليبيين بعد أن شهد تمهلهم على الضفة الغربية لنهر الفرات. كان مركزه دائماً بالغ الحرج، إذ ارتاع لما بلغه من أنباء حشد كربوقا، أمير الموصل المعروف بخطورته وشدته، جيشاً ضخماً، استعداداً لنجدة إنطاكية، وقدرته على أن يمحو في سهولة ويسر، الرها وسائر الإمارات الأرمنية الواقعة في طريقه. إلا أن بلدوين لم يجازف بالذهاب إلى الرها إلَّا بالشروط التي تلائمه.. واضطر توروس أخيراً إلى إعلان تبنِّيه للقائد الصليبي واتخاذه وريثاً شرعياً وقسيماً له في حكم بلاده[٢].

لم يغب عن المسلمين عامة، وكربوقا على وجه الخصوص، حقيقة أن أمير الرها الصليبي الجديد سرعان ما غدا قوة لا بد من الاهتمام بأمرها،

(١) ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٣٠-١٣٣، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠٢.

(٢) ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ٢٨٩ (ترجمة السيد الباز العريني).

لذا أجمعوا على تدميره قبل أن يستفحل خطره. ويتضح مدى عزم المسلمين على تحقيق هذا الهدف في توقف كربوقا عند أسوار «الرها» لدى مسيره لنجدة إنطاكية، وذلك للتخلص من بلدوين، ولم يتخلّ عن هدفه إلا بعد أن ظل ثلاثة أسابيع يهاجم أسوار الرها دون جدوى، وأدّى فشله إلى ارتفاع مكانة بلدوين وهيبته، كما أن ما أضاعه كربوقا من وقت أنقذ الحملة الصليبية الأخرى التي كانت تستهدف إنطاكية آنذاك[١].

استأنف كربوقا مسيره صوب إنطاكية، وما لبث السلاجقة أن أعلنوا عن مساندتهم له ووعدوه بالمساعدة. وفي مرج دابق «اجتمعت معه عساكر الشام تُرْكُها وعَرَبُها، سوى من كان بحلب، فاجتمع معه دقاق حاكم دمشق وأتابكه طغتكين، وجناح الدولة صاحب حمص، وأرسلان تاش صاحب سنجار، وسليمان بن أرتق أحد أمراء الأراتقة، وغيرهم من الأمراء ممن ليس مثلهم. فلما سمعت الفرنج عظمت المصيبة عليهم، وخافوا لما هم فيه من الوهن وقلة الأقوات عندهم»[٢].

كان الصليبيون آنذاك قد أحكموا تطويق إنطاكية، وإزاء ذلك حشد ياغي سيان داخل الحصن كل ما لديه من قوات، وعزز استحكامات المدينة الدفاعية، وشرع في توفير ما يكفيه من المؤن لحصار طويل. ولم يسع الصليبيون، وقد أحسوا باحتمال وقوعهم بين شقي الرحى: ياغي سيان من

(١) المرجع السابق ١/ ٢٩٩. وانظر ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٣٠ حيث نجده يقدم رقماً مبالغاً فيه لقوات تلك الحملة؛ إذ يقدرها بثلاثمئة وعشرين ألف مقاتل. وتتضح هذه المبالغة إذا ما قارنا هذا بالرقم الذي أورده رنسمان عن عدد القوات الإسلامية ـ نقلاً عن المصادر الفرنجية ـ حيث يقول: «والراجح أن جيش كربوقا بلغ عدده نحو ثلاثين ألف رجل، غير أنه ليس لدينا دليل قاطع. وكان بوسعه أن يبلغ من الكفاية في حصار إنطاكية ما لم يبلغه الجيش الصليبي»: تاريخ الحروب الصليبية ١/ ٢٨٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠٢، ابن العديم: زبدة الحلب، ٢/ ١٣٣، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٤٧-١٤٨.

الداخل وكربوقا وحلفاؤه من الخارج، إلا أن يعززوا هجومهم بالقيام بنشاط سياسي واسع النطاق استهدف تمزيق وحدة المسلمين وكسب بعض قادتهم، فدخلوا في مفاوضات مباشرة مع الفاطميين حصلوا من خلالها على عدد من النتائج المهمة لصالحهم، بعد أن وعدهم حلفاؤهم الجدد بالعمل سوية من أجل اقتسام بلاد الشام. كما أنهم بعثوا إلى دقاق أمير دمشق يطلبون منه التزام الحياد، وأعلموه بأنهم لم يتخذوا خططاً لمهاجمة بلاده.

إلا أن دقاقاً لم يستجب لرغباتهم نظراً لرجوع أخيه ومنافسه رضوان حاكم حلب إلى سابق حياده[١].

ظل ياغي سيان صامداً في إنطاكية رغم ما تعرض له من ضغط شديد، وازداد التوتر بين الصليبيين إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا، أولاً وقبل كل شيء، على المدينة، فسوف يجري تحطيمهم لوقوعهم بين حامية المدينة والجيش الضخم القادم لإنقاذها، وبعثوا إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس نداءً حاراً يلتمسون نجدتهم. واستبد القلق والضيق ببوهمند بصفة خاصة، لحرصه وعزمه على استخلاص إنطاكية لنفسه، فإذا ما حدث ووصل الإمبراطور قبل سقوطها، أو إذا لم يتيسر هزيمة كربوقا إلا بمساعدة الإمبراطور، صار من المستحيل الامتناع عن رد إنطاكية إلى الإمبراطورية البيزنطية. على أن ما ارتكبه كربوقا من أخطاء في التقدير، هيأ للحملة الصليبية الفرصة للتنفس والراحة. إذ لم يشأ كربوقا ـ كما رأينا ـ أن يزحف على إنطاكية ومن خلفه جيش صليبي في الرها يهدد جناحه الأيمن. ولم يدرك أن بلدوين، أمير الرها، بلغ من شدة الضعف أن غدا ليس بوسعه القيام بالهجوم، بل اعتقد أنه بلغ من القوة في حصنه المنيع ما لا يسهل طرده منه. ولم يقرر كربوقا أن ما بذله من جهد، وأنفقه من وقت، إنما ضاع

---

(١) رنسمان ١/٣٢٦.

سدى، إلا بعد أن أمضى الأسابيع الثلاثة الأخيرة أمام الرها يحاول عبثاً مهاجمة أسوارها. وفي أثناء تلك الأسابيع الثلاثة القيمة أمعن بوهمند في العمل، واستطاع أن يوطِّد صلته بأحد القادة داخل مدينة إنطاكية واسمه فيروز، وهو ليس إلا أرمنياً اعتنق الإسلام وارتقى إلى وظيفة عالية في حكومة ياغي سيان. وعلى الرغم من تظاهره بالولاء لسيده فإنه كان شديد الحقد والبغضاء له لأنه فرض عليه أخيراً غرامة لاختزانه القمح. فاتصل فيروز بإخوانه السابقين في الدين (الأرمن)، وعن طريقهم وصل إلى تفاهم مع بوهمند وافق بمقتضاه على أن يبيع المدينة له. على أن سرَّ الصفقة ظلَّ محفوظاً، فلم يبح به بوهمند لأحد، بل إنه بدلاً من ذلك صار يؤكد علناً ما سوف يواجه الصليبيين من أخطار، كيما يزيد من قيمة انتصاره المقبل[1] !!

أخذت قوات كربوقا تقترب من إنطاكية شيئاً فشيئاً، وأخذ الذعر يسود معسكر الصليبيين وصار يتسلل منه عساكر بلغت من كثرة العدد أنْ غدا من العبث محاولة منعهم. وكان بضمنهم ستيفن بلوا قائد جماعة كبيرة من عساكر شمال فرنسا، إلا أن مؤامرة فيروز ما لبثت أن آتت أكلها وانثالت قوات الصليبيين ـ وفق خطة متفق عليها ـ إلى داخل المدينة؛ حيث ساعدهم المسيحيون والأرمن المحليون وقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين، واضطر ياغي سيان إلى الفرار حيث قتله أحد الأرمن أثناء سقوطه عن فرسه في إحدى المرتفعات، أما ابنه شمس الدولة فقد لجأ إلى القلعة واعتصم بها. ولم يفلح الهجوم الذي شنه بوهمند على القلعة، وأعقبه بما هو أسهل، حيث راح وقواته ينهبون شوارع المدينة ويستبيحونها. ولم تحل ليلة الثالث من حزيران عام (١٠٩٨م = ٤٩١ هـ) حتى لم يبق في إنطاكية من الترك أحد من الأحياء يجرؤ على الظهور.. وعادت إنطاكية مسيحية مرة أخرى. وما أن

(١) المرجع السابق ١/ ٣٢٧-٣٢٩، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص١٣٥، ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٣٣-١٣٥.

وصل إلى البلاد المجاورة خبر الفوضى والخراب اللذين حلّا بإنطاكية إثر دخول الصليبيين حتى هرب المسلمون منها وتسلمها الأرمن[١].

وما أن علم كربوقا وحلفاؤه بنبأ استيلاء الصليبيين على إنطاكية حتى غادروا مواقعهم في مرج دابق واتجهوا إلى أرتاح على طريق إنطاكية، وانطلق بعضهم إلى جسر الحديد، شمال شرقي إنطاكية، وقتلوا من كان معسكراً فيه من الصليبيين. وما لبثت القوات الإسلامية أن عسكرت قريباً من أسوار إنطاكية في السادس من رجب، فانسحب من كان مقيماً بظاهر البلد من الصليبيين إلى الداخل، واكتشف المسلمون أن القلعة لا زالت مستعصية على الغزاة[٢].

جابه الصليبيون إثر دخولهم المدينة مشاكل عدة؛ أهمها: لمن تكون إنطاكية ؟ ولكنهم لم يكن لديهم أول الأمر وقت لمناقشة ذلك، إذ كان كربوقا يزحف بجيوشه، ولا بدّ من الدفاع عن المدينة إزاء الهجوم الحادث. ومهما وضع بوهمند من خطط فالواقع أنه لم يتوافر له من العساكر ما يكفي لحراسة الأسوار، إلا بمساعدة رفاقه، فالتزم كل واحد منهم بالدفاع عن قطاع من الاستحكامات. والواضح أن الصليبيين استطاعوا أن يستقرّوا في المدينة قبيل قدوم كربوقا. وما أن ألقى هذا القائد رحاله عند الأسوار حتى بادر شمس الدولة بن ياغي سيان بأن بعث إليه من القلعة يطلب منه المساعدة. غير أن كربوقا أصرَّ على أنه لابدَّ لعساكره أن يحوزوا القلعة. والتمس منه شمس الدولة أن يحتفظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة، غير أن توسّلاته ضاعت سدى، فلم يسعه إلّا أن يسلّم الحصن وكل مخازنه إلى نائب كربوقا الأمين أحمد بن مروان[٣].

---

(١) رنسمان ١/٣٢٩-٣٣٤، R . Grousset :Histoire des Croisades 1\96-98، ابن القلانسي: المصدر السابق ص١٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/١٥٦.

(٢) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦ Grousset : op cit , V 96\9 .

(٣) رنسمان ١/٣٣٦-٣٣٧، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧.

ما لبث المسلمون أن بدؤوا القتال بأن شنّوا هجوماً على البلد من ناحية القلعة، استهدف كربوقا من ورائه النفاذ إلى البلد عن طريق القلعة. وقاتل المسلمون الصليبيين «الذين أشرفوا على التلف» الأمر الذي دفعهم إلى بناء سور لمنع اتصال القلعة باستحكامات المدينة، وصد محاولات المسلمين لاستغلال نقطة الضعف هذه والتسرب إلى المدينة(١). وما لبث أحمد بن مروان أن قام باختبار هذا القطاع وبادر بتوجيه هجومه عليه في التاسع من حزيران، وكاد يتغلب على الصليبيين، غير أنهم استطاعوا آخر الأمر أن يردُّوه على أعقابه وأن يكبِّدوه خسائر فادحة، على أنَّ كربوقا قرر إثر ذلك أنَّ من دواعي الاقتصاد في النفقات أن يضيِّق الخناق على أعدائه ويشتد في حصارهم، ثم يوجه إليهم ضربته حين يضعفهم الجوع. ومن ثم تحرك في العاشر من حزيران حتى يتم تطويق المدينة، وحاول الصليبيون أن يمنعوه من ذلك فقاموا بهجوم عنيف ضده، غير أنهم لم يلبثوا أن ارتدُّوا واحتموا بالأسوار(٢).

استبد بالصليبيين القنوط واليأس، بعد أن فشلت جهودهم، فالروح المعنوية التي ارتفعت منذ أسبوع بالاستيلاء على المدينة لم تلبث أن هوت إلى أحط دركٍ. أخذ الطعام ينفد من جديد، وغلت الأسعار غلاءً فاحشاً، واضطر الجند إلى أكل الميتات(٣).. وظن عدد كبير من الفرسان أن ستيفن بلوا، القائد الفرنسي، لم يتخذ بقراره إلا أحسن السبل وأسلمها، فتسللوا إلى البحر هم الآخرون. ولم يبق أمام الصليبيين إلا فرصة قدوم الإمبراطور البيزنطي الكسيوس على رأس قواته.. واعتقد هذا أنه إذا ما استولى الترك على إنطاكية، وهلك الصليبيون، فمن المحقق أن الترك سوف يمضون في

(١) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، رنسمان ١/٣٣٧.

(٢) رنسمان ١/٣٣٨-٣٣٩.

(٣) المرجع السابق ١/٣٣٨-٣٣٩، ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، ابن الأثير: الكامل ١٠/١٠٣.

الهجوم، ولا شك أنَّ السلاجقة سوف يحاولون استرداد ما فقدوه من الأراضي، وسوف يساندهم كل العالم التركي المظفر من ورائهم. على أنه لسبب - لا زال غير معروف - لم يفكر الكسيوس في أن تمتد مواصلاته إلى أبعد من قلب الأناضول، وقفل عائداً إلى الشمال مكتفياً بما استولى عليه من أراضي الترك هناك[١].

واصل كربوقا - خلال ذلك - ضغطه على إنطاكية، وقام في الثاني عشر من حزيران بهجوم مفاجئ كاد يجعله يستولي على أحد الحصنين المقامين على السور الواقع جهة الجنوب الغربي من المدينة، ولم يحفظ هذا الحصن إلا بسالة ثلاثة من فرسانه. وكيما يتجنب بوهمند تجدُّد هذه الأخطار أمر بإشعال الحريق في كل ما يقع بالقرب من السور، من شوارع المدينة، حتى يتهيَّأ لعساكره بذلك أن تقوم بتحركاتها ومناوراتها في يسر وسهولة بالغة[٢].

ما لبثت أسطورة الحربة المقدسة أن راجت في معسكرات الصليبيين، فرفعت من روحهم المعنوية في وقت كانوا فيه على وشك الاستسلام لليأس الكامل. فقد ادعى بطرس بارثولوميو، أحد الخدام الذين قدموا مع الحملة الصليبية، أنه شاهد حلماً عن موضع الحربة التي اخترقت جنب المسيح عليه السلام، وقصها على الأمراء الصليبيين، ففتشوا عنها ووجدوها في ذات المكان الذي كان قد وضعها بطرس نفسه فيه!! يقول ابن الأثير: «وكان مع الفرنج راهب مطاع فيهم، وكان داهية من الرجال، فقال لهم: إن المسيح (عليه السلام) كان له حربة مدفونة بالقسيان الذي بإنطاكية وهو بناء عظيم، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون، وإن لم تجدوها فالهلاك محقق. وكان قد دفن قبل ذلك حربة في مكان فيه وعفا على أثرها، وأمرهم بالصوم والتوبة،

---

(١) رنسمان ١/ ٣٣٨-٣٤١ (ربما كان ارتداد الإمبراطور يعود إلى تخوفه من هزيمة الفرنج ووقوفه وجهاً لوجه أمام قوات الأتراك. المصدر نفسه، هامش ١، ١/ ٣٤١).

(٢) رنسمان ١/ ٣٤٢-٣٤٣.

ففعلوا ذلك ثلاثة أيام. فلما كان اليوم الرابع أدخلهم الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم، وحفروا في جميع الأماكن، فوجدوها كما ذكر، فقال لهم: أبشروا بالظفر، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين»[١]. ومن ثم أعلن بوهمند أن الخطة الوحيدة أمام الصليبيين هي أنه لابد لهم من القيام بهجوم شامل على معسكر كربوقا. وبينما ازداد الصليبيون معنوية وتماسكاً وأملاً، أخذ حلف كربوقا يتعرض لتمزق خطير بسبب عدم مرونته من جهة، والأحقاد الشخصية التي تناوشت حلفاءه، وما رافقها من شكوك، من جهة أخرى.

فعندما كانت رسل رضوان أمير حلب تترى على كربوقا، امتلأ قلب أخيه وغريمه دقاق غيظاً، وتوهم أن هذه الاتصالات تستهدفه شخصياً، فضلاً عن أنه كان يحرص على مغادرة إنطاكية والعودة إلى الجنوب بسبب اعتداء الفاطميين على فلسطين. وكان هناك عداءٌ أسري مستحكم بين أميري حمص ومنبج، استحال معه حدوث أي تعاون أو تنسيق بين قواتهما. وحدثت منافرات بين الترك وبين العرب التابعين للأمير العربي وثَّاب بن محمود، انسحبوا على أثرها، كما تفرق كثير من الترك بتحريض من رضوان[٢]. «وأساء كربوقا السيرة فيمن معه من المسلمين، وأغضب الأمراء وتكبَّر عليهم ظناً منه أنهم يقيمون معه على هذه الحال، فأغضبهم ذلك وأضمروا له في أنفسهم الغدر إذا كان القتال، وعزموا على إسلامه عند المصدوقة»[٣]. وإذا كنا نستطيع التماس بعض الأعذار لتصرفات كربوقا الذي سعى إلى استغلال سلطته واستخدام أساليب الشدة من أجل تماسك حلفه،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص١٩٦-١٩٧، وانظر التفاصيل الدقيقة لقصة الحرب المقدسة في: رنسمان ١/٣٤٣-٣٤٨. وانظر مناقشة هذا الادعاء وتفنيده: نفس المرجع ١/٣٤٩.

(٢) ابن العديم: زبدة ٢/١٣٦-١٣٧، رنسمان ١/ ٣٥٠، Grousset: op. cit, 1/104-6.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٠٢.

إلَّا أننا لا يمكن أن نجد أيَّ عذر لتصرفات سائر حلفائه من الأمراء الذين نسوا هدفهم المشترك، ولم تكن تهمهم في تلك الساعات الحرجة سوى مصالحهم الخاصة وشفاء أحقادهم المتأصلة.

لم تكن متاعب كربوقا مجهولة لدى قادة الصليبيين الذين حاولوا أن يحملوه على التخلي عن الحصار. فأنفذوا إلى معسكره في أواخر حزيران سفارةً مؤلفةً من بطرس الناسك وفرنجي يدعى هيرلوين يجيد الحديث باللغتين العربية والفارسية. ولا نعلم شيئاً عن الشروط التي كُلِّف بطرس بعرضها، إذ إن ما أجراه المؤرخون المتأخرون من الأحاديث على لسان بطرس وكربوقا يعتبر من نسيج الخيال. ولعلَّ من الاقتراحات ما أورده أولئك من أنه قد يحسم الموقف القيام بسلسلة من المبارزات الفردية، إلَّا أنَّ كربوقا ظلَّ مصراً على وجوب استسلام الصليبيين دون قيد أو شرط، على الرغم من تزايد ضعف جيشه[١]! وقال للسفراء: «لا تخرجون إلا بالسيف»[٢]. وهكذا خسر كربوقا هذه الفرصة الثمينة، وعادت السفارة دون أن تتوصل إلى شيء. غير أنه في أثناء قيامها بمهمتها وقف هيرلوين، فيما يبدو، على معلومات بالغة الأهمية عن مجرى الأمور في المعسكر التركي. وإذ فشلت السفارة غدا لا بدَّ من القتال. وفي الصباح الباكر من يوم الإثنين، الثامن والعشرين من حزيران، عبأ بوهمند قواته للقتال؛ حيث قسمهم إلى ستة جيوش، وللمحافظة على القلعة ومراقبتها تقرر إبقاء مئتي عسكري بالمدينة يتولى قيادتهم ريموند من فراش مرضه[٣].

ما أن بدأ الصليبيون يتسلَّلون فرادى إلى خارج أسوار إنطاكية، على مرأى من قوات المسلمين حتى تقدَّم القائد العربي وثَّاب بن محمود وعدد

(١) رنسمان ١/ ٣٥١.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠٣.
(٣) رنسمان ١/ ٣٥١-٣٥٢.

من قادة المسلمين إلى كربوقا وقالوا له: «ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج، فإن أمرهم الآن وهم متفرّقون سهل»، فأجابهم قائلاً: «لا تفعلوا، أمهلوهم حتى يتكامل خروجهم، فنقتلهم»، ومن ثم أصدر أمراً يمنع فيه قواته من معاجلتهم، وعندما قام جماعة من قواته بقتل بعض الخارجين من الفرنج، جاء إليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم، معتقداً أن بإمكان المسلمين إنزال ضربة ساحقة بأعدائهم في اللحظة التي يتم فيها خروجهم من إنطاكية[1]، فضلاً عن أنه خشي، إذا ما أسرع بقتالهم، أن لا يتمكن سوى من سحق مقدمتهم، أما إذا انتظر فإنه سوف يتخلص بضربة واحدة من كل القوات الصليبية، وتبين له من سلوك عساكره أنه سوف لا يتحمل استمرار الحصار المرهق زمناً طويلاً. على أنه حينما شاهد الصليبيين في كامل عدتهم، أخذ يتردَّد، وبعث إليهم من قبله رسولاً، بعد فوات الأوان، يعرض عليهم أنه على استعداد لأن يناقش معهم شروط الهدنة، غير أن أعداءه تجاهلوا رسوله ومضوا في تقدمهم[2].

ما أن تم خروج القوات الصليبية ووقوفها إزاء جيوش كربوقا حتى لجأ هذا إلى اتخاذ ما درج عليه الترك من خطط حربية، وذلك بالتظاهر بالانسحاب، واستدراج العدو إلى أرض بالغة الوعورة حيث قذف رماته صفوف العدو بوابل من السهام. وفي تلك الأثناء بعث بفصيلة من جيشه كي تحيط بقواتهم من ناحية اليسار؛ حيث لم يكن النهر ليحميهم، غير أن بوهمند استعد لذلك فألف جيشاً سابعاً لوقف هذا الهجوم[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٠٣، ابن العديم: ٢/١٣٦-١٣٧.

(٢) رنسمان ١/ ٣٥٢-٣٥٣.

(٣) هذا ما تؤكده المصادر الفرنجية التي نقل عنها (رنسمان: المرجع السابق ١/ ٣٥٣) وهو المرجّح اعتماداً على سوابق ولواحق هذه الخطة التي كثيراً ما كان الأتراك يعتمدونها في قتالهم . أما ابن العديم فيشير إلى أن ذلك الانسحاب السريع لقوات كربوقا لم يكن إلا هزيمة توهمها الفرنج مكيدة فكفوا عن مطاردة المسلمين . يقول: انهزم عسكر كربوقا بعد أن
=

اشتد القتال في الجبهة الرئيسية، ولم يستطع الرماة الترك وقف زحف الصليبيين، وأخذت صفوف الترك تضطرب، وأمعن الصليبيون في الضغط عليهم ومضوا في زحفهم. وزاد في مساعدتهم ما قرره كثير من أمراء كربوقا من التخلي عنه، إذ إنهم خافوا أنه إذا ما أحرز النصر فسوف يصير له من القوة ما سوف يجعلهم أول من يدفع الثمن باهظاً. فأخذ جند دقاق أمير دمشق يغادرون ساحة القتال، وترتب على ذلك أن ساد الذعر بين قوات المسلمين، فأشعل كربوقا النيران في الحشائش الجافة أمام صفوف عساكره كيما يعوق سير الفرنج، دون جدوى، وراح في الوقت نفسه يسعى إلى إشاعة الأمن في صفوف قواته. ولم يبق موالياً له إلا سقمان بن أرتق وأمير حمص. حتى إذا فرَّا، أدرك أن المعركة خاسرة وانصرف عن القتال. وتداعى كل الجيش التركي ووقع فريسة الفوضى والخوف. وإذ اتبع الصليبيون النصيحة التي بذلها أحد قادتهم بألَّا تشغلهم عملية نهب معسكر العدو، أخذوا يطاردون الفارِّين حتى بلغوا جسر الحديد، فقتلوا عدداً كبيراً منهم.

أمَّا أولئك الذين التمسوا ملاذاً في قلعة إنطاكية فجرى تطويقهم، ولم يلبثوا أن هلكوا. ولقي كثير من الباقين مصرعهم، أثناء فرارهم، على أيدي السريان والأرمن المحلِّيين في الريف... ووصل كربوقا إلى الموصل في

= عاث التركمان فيه، وتوهم الفرنج أن ذلك مكيدة فتوقفوا عن تبعهم، فكان ذلك سبباً لسلامة من أراد الله سلامته (زبدة ٢/ ١٣٦-١٣٧). ويذهب ابن الأثير إلى ما ذهب إليه ابن العديم، مع إعطاء المزيد من التفاصيل عن أسباب هذه الهزيمة، فيقول: «لما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بإنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافاً عظيماً، فولى المسلمون منهزمين، لما عاملهم به كربوقا من الاستهانة بهم والإعراض عنهم، ومنعهم من قتل الفرنج. وتمت الهزيمة عليهم، ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمى بسهم. وآخر من انهزم سقمان وجناح الدولة؛ لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوقا معهم، فلما رأى الفرنج ذلك ظنوه مكيدة، إذ لم يجر قتال ينهزم من مثله، وخافوا أن يتبعوهم. وثبت جماعة من المجاهدين وقاتلوا حسبة وطلباً للشهادة، فقتل الفرنج منهم ألوفاً» (الكامل ١٠/ ١٠٣).

فلول جيشه، ماراً بحلب حيث حمل له صاحبها رضوان خياماً وطعاماً، وضاع إلى الأبد ما كان له من سلطة ومكانة(١) .

أما أحمد بن مروان نائب كربوقا في قلعة إنطاكية فقد فاوض الصليبيين وأعلن استسلامه لهم، حيث سمح له ولحاميته مغادرة المكان في الثاني من شعبان دون التعرض لأذى(٢)، وتحول جماعة من أصحابه، وبضمنهم أحمد نفسه، إلى المسيحية وانحازوا إلى جيش بوهمند. وهكذا قرر انتصار الصليبيين الحاسم على كربوقا أنه لا بد أن تبقى إنطاكية في حوزة المسيحيين، غير أنه لم يقرر أيّاً منهم تنتقل إلى حوزته: الفرنج أم الإمبراطور البيزنطي(٣).

يبدو لنا، بعد استعراض تفاصيل الدور الذي لعبه كربوقا في مجابهة الهجوم الصليبي على المعاقل الإسلامية الأولى، أنه بذل ما في وسعه للتصدي لهذا الخطر قبل أن يتمكن من تثبيت أقدامه في الأرض الإسلامية؛ فلم يألُ جهداً في تهيئة كافة العوامل العسكرية: الزمنية والبشرية والفنية، من أجل تحقيق هدفه ذاك. إلّا أن ظروفاً شديدةَ التعقيد، أسهم هو ـ بأخطائه السياسية والعسكرية ـ في تشكيل بعضها، وأسهم أمراؤه وحلفاؤه ـ بحرصهم على مكاسبهم الإقليمية، وتغلغل الحقد والتنافس الشخصي بينهم ـ في تشكيل معظمها؛ هذه الظروف هي التي أحبطت محاولة كربوقا، وانتهت بها إلى هذا المصير المفجع الذي كان له تأثيراته السيئة ونتائجه الخطيرة على مستقبل الحرب الصليبية بشكل عام.

فلقد استطاع الصليبيون، إثر هزيمة كربوقا، أن يثبتوا أقدامهم في بلاد الشام، كما كانوا قد ثبتوها قبيل ذلك في منطقة الجزيرة عن طريق الرها،

---

(١) رنسمان ١/ ٣٥٣-٣٥٤، Grousset: op. cit, 1\106-9، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٣٦-١٣٨، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٠٣، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٣٦.

(٢) رنسمان ١/ ٣٥٤، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٣٧-١٣٨.

(٣) رنسمان ١/ ٣٥٤.

وأن يتخذوا من إنطاكية ـ إمارتهم الثانية ـ قاعدة للانطلاق إلى الجنوب، وفرض سيطرتهم على المواقع القائمة على الطريق إلى القدس. وليس استيلاء الصليبيين على القدس، وإنزالهم بأهليها تلك المذبحة الرهيبة التي ذهب ضحيتها سبعون ألفاً من السكان المجردين عن السلاح، سوى نتيجة مباشرة للهزيمة التي مني بها المسلمون عند أسوار إنطاكية. ذلك أن هزيمة كهذه، لم تعط الصليبيين فرصة التماسك والانطلاق ثانية إلى أهدافهم فحسب، بل إنها أصابت وحدة القوى الإسلامية في المنطقة بضربة قاصمة، فمزَّقتها وشلَّتها عن العمل المشترك المنسق فترة من الزمن، كان الصليبيون يجتاحون ـ خلالها ـ القرى والمدن والحصون، بينما كان قادة المسلمين يجترُّون أحقادهم ويسعون للحفاظ على أقاليمهم فحسب، في الوقت الذي كان المسلمون فيه قد شُدِهوا للانتصارات الصليبية المتلاحقة، تلك التي لم تُجْدِ، بعد هزيمة كربوقا، أية محاولة جادَّة لصدها عن المضي صوب هدفها المرسوم.

والحق أن أخطر ما ترتب على هزيمة المسلمين عند إنطاكية هو الشلل الذي أصاب سياسة كربوقا وموقفه إزاء الخطر الصليبي الزاحف. فلقد أصابته تلك الهزيمة، بما حدث فيها من بوادر السلبية والانهزام لدى عدد من أمرائه، والخيانة المكشوفة لدى عدد آخر، بردِّ فعل شديد صدَّه عن التفكير الجاد في القيام بأية محاولة جديدة لتزعُّم القوى الإسلامية في المنطقة، والتصدي للزحف الصليبي السريع صوب الشرق والجنوب. إلَّا أنَّ هذه النتائج السلبية جميعاً لن تصدنا عن محاولة تلمس ردود الفعل الايجابية التي تمخَّضت عن هزيمة إنطاكية، وما أعقبها من انتصارات صليبية، أحدثت هزة عنيفة في ضمائر مسلمي المنطقة ونفوسهم، وعمَّقت وعيهم السياسي، وحركتهم لمطالبة جماعية من القوى الإسلامية الحاكمة أن تتخذ تدابير سريعة لوقف الهجوم الصليبي، الأمر الذي دفع السلاجقة، بعد سلسلة من

الضغوط والاضطرابات العامة والمظاهرات الحاشدة[١]، إلى توجيه اهتمامهم صوب تلك الساحة، ومن ثم أتيح لولاة الموصل، الذين أعقبوا كربوقا، أن يتولوا ـ ثانية ـ زمام المبادرة وأن يدخلوا، كقادة وحلفاء مع سائر المنطقة، في معارك متتالية مع الصليبيين، وأن يحققوا خلال صراعهم ذاك انتصارات بالغة الأهمية، مكنت العالم الإسلامي من أن يقف على قدميه ثانية، وأن يتحوَّل من مراكز الدفاع إلى الهجوم، كما فتحت الطريق أمام ظهور قيادات أشد حنكة ودراية وتمكُّناً، أخذت على عاتقها، فيما بعد، السعي الدائب المنظم من أجل طرد الغزاة وإرغامهم على العودة ثانية من حيث جاؤوا.




(١) انظر على سبيل المثال: ابن الجوزي: المنتظم ٩/ ١٠٥، ١٠٨، ١٦٥، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٥٦، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ١٥٠-١٥١، ١٥٢، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٧٣-١٧٤.

شمس الدولة جكرمش

٤٩٥ ـ ٥٠٠ هـ = ١١٠١ ـ ١١٠٦م

كانت أولى تلك المبادرات، ما حدث عام (٤٩٧هـ = ١١٠٣م) من قيام جكرمش، الذي أعقب كربوقا في حكم الموصل منذ عام ٤٩٥هـ، بعقد تحالف مع سقمان بن أرتق أمير الأراتقة في ديار بكر، استهدف التصدي لتقدم الصليبيين شرقاً باتجاه قلب الجزيرة. إذ كان للانتصارات السريعة التي أحرزها الصليبيون، واعتزامهم الاستيلاء على حران الواقعة على مفرق الطرق إلى العراق والجزيرة والشام، مستغلين فرصة الصراع بين الأمراء المسلمين[١]، فضلاً عما يعنيه الاستيلاء على حران من قطع الصلة بين المسلمين في بلاد فارس والعراق والشام، وإعطاء الصليبيين فرصة لمهاجمة الموصل، وتأمين الرها، والسيطرة على إقليم الجزيرة، كان لهذه العوامل جميعاً الأثر الحاسم في تناسي كل من جكرمش وسقمان خلافاتهما القديمة، والعمل سوية لإيقاف تقدُّم الصليبيين.

حيث أرسل كل منهما إلى صاحبه يدعوه إلى الاجتماع لتلافي أمر حرَّان «ويعلمه أنه قد بذل نفسه لله تعالى وثوابه» !! فأجاب كل منهما صاحبه، واجتمعا على الخابور عند رأس العين؛ حيث عززا تحالفهما وتوجها على رأس عشرة آلاف فارس من الترك والعرب والأكراد[٢] لمنازلة الرها قبل أن

---

(١) H. S. Finck: The Foundation fo the Latin States, in: Setton: A History of the Crusades 1/389.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٣٩-١٤٠. ويلاحظ أن المصادر الصليبية قدرت عدد قوات المسلمين بثلاثين ألف رجل، وهو رقم مبالغ فيه ربما قصد فيه تبرير الهزيمة التي حلت بالجيوش الصليبية. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية (حاشية ١، جزء ١، ص٤٠٤). وانظر: Albert d' Aix, (Hist. Occid, Iv, p. 615.

يتعرضا للهجوم. وعندما سمع بلدوين الثاني أمير الرها نبأ احتشادهم في رأس العين أرسل إلى جوسلين وبوهمند يستنجد بهما، واقترح عليهما أن يحوّلا وجهة الهجوم بأن يقوما بمحاولة لمنازلة حران. وبعد أن أبقى بلدوين حامية صغيرة في الرها اتخذ طريقه إلى حران على رأس جماعة صغيرة من الفرسان والأرمن، وانحاز إليه بالقرب من حران كل من جوسلين أميرتل باشر وبوهمند أمير إنطاكية وابن أخته تانكرد، وبطريرك إنطاكية، وجيش ضم فرسان الصليبيين وأمراءهم وعدداً كبيراً من الأرمن ورجال الدين، بلغ عدده نحو ثلاثة آلاف فارس، ونحو ثلاثة أمثال هذا العدد من الرجالة. والواقع أن هذا الجيش يمثل القوة الضاربة الكاملة لدى صليبيي شمالي الشام، عدا حاميات الحصون. وعندما احتشد هذا الجيش أمام حران كان جكرمش وحليفه لا يزالان يزحفان نحو «الرها»[(١)].

كاد الصليبيون أن يستولوا على حران، بعد وقت قصير من فرض الحصار عليها، إلا أن الخلاف الذي نشب بين بلدوين لي بور وبوهمند، وإصرار كل منهما على رفع رايته على المدينة بعد الاستيلاء عليها، ساعد على صمود حران، وأتاح للمسلمين فرصة التحرك لقتال الصليبيين قبل سقوط هذا الموقع بأيديهم. وتم اللقاء بين الطرفين على نهر البليخ في التاسع من شعبان، حيث أظهر المسلمون الهزيمة، فتبعهم الصليبيون نحواً من فرسخين، فأعاد المسلمون الكرة عليهم وأبادوا معظم قواتهم[(٢)]، وغنموا مقادير كبيرة من الأموال والممتلكات[(٣)]، وكان بوهمند أمير إنطاكية

(١) رنسمان ٢/ ٧١-٧٢.

(٢) يشير ابن الأثير (الكامل ١٠/ ١٤٠) إلى أن عدد قتلى الفرنج بلغ ما يقارب الاثني عشر ألفاً. ولا ريب أن هذا الرقم مبالغ فيه، بعد أن رأينا أنَّ عدد قوات الصليبيين جميعاً ـ في هذه المعركة ـ لم يجاوز هذا العدد.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٤٣، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٣٩-١٤٠، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٤٨-١٤٩، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (مخطوطة) ورقة ١٦ب ـ١٧ آ، أبو الفدا: =

وابن أخته تانكرد، قد كمنَا خلف إحدى المرتفعات لينقضًا على المسلمين من مؤخرتهم حين يشتد القتال، فلما خرجا شاهدا هزيمة رفاقهم ونهب معسكراتهم، فأقاما في أماكنهما إلى الليل، ومن ثم تسلَّلا هاربين، فتبعهما المسلمون وقتلوا وأسروا من أصحابهما عدداً كبيراً، بينما تمكَّنا هما من الفرار إلى الرها. أما بلدوين وجوسلين فقد تم أسرهما. وكان بلدوين قد انهزم مع جماعة من قواده وخاضوا نهر البليخ، إلَّا أن الأوحال أعاقت تحرُّكهم السريع، فلحقهم قائد تركماني من أصحاب سقمان وتمكن من أسرهم؛ حيث حمل بلدوين إلى سيده سقمان.

وعندما رأى أصحاب جكرمش أنَّ قوات سقمان قد استولت على حصة الأسد من غنائم الصليبيين قالوا لسيدهم: «أي منزلة تكون لنا عند الناس وعند التركمان، إذا انصرفوا بالغنائم دوننا ؟» وحسنوا له اختطاف بلدوين، فأرسل جكرمش بعض أصحابه؛ حيث تمكنوا من اختطاف الأمير الصليبي من معسكر سقمان. فلما علم هذا بما حدث، وكان خلال ذلك غائباً عن مقره، شق عليه الأمر، وتهيأ أصحابه للقتال، إلا أنه ما لبث أن ردَّهم وقال لهم: «لا أوثر شفاء غيظي بشماتة الأعداء بالمسلمين»!![1] ومن ثم تقدَّم على رأس قواته، وأخذ سلاح الصليبيين وراياتهم، وألبس أصحابه ملابسهم وأركبهم خيلهم وجعل يأتي حصون إقليم شبختان من ديار بكر، فيخرج الصليبيون منها، ظناً منهم أن أصحابهم قد انتصروا فيجابههم سقمان ويقضي عليهم ويقتحم حصونهم، وتمكن بذلك من وضع يده على عدد من حصون المنطقة، وقفل عائداً إلى مقر إمارته في ديار بكر[2].

= المختصر في أخبار البشر ٢/ ٢٢٧-٢٢٨، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٦٩-٧٠، ٣٩٨-٣٩٩، ٤٦٥-٤٦٦، ابن تغري بردي: النجوم ٥/ ١٨٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٩، السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية ١/ ٣٨٥، رنسمان ٢، ٧١-٧٤.

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٣٩-١٤٠.

(٢) الكامل ١٠/ ١٣٩-١٤٠، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٦٩-٧٠، ٣٩٨-٣٩٩.

قرر جكرمش المضي في القتال بعد عودة حليفه، وقام باقتحام قلاع الصليبيين في إقليم شبختان الممتد إلى شرق الرها، ليحمي مؤخَّرته، ومن ثم واصل السير إلى الرها نفسها. وإذ أدى تمهل الصليبيين من قبل، إلى الإبقاء على حران بأيدي المسلمين، فقد أبقى الرها للمسيحيين ما حدث من تمهل المسلمين. إذ توفر لتانكرد من الوقت ما يكفي لإصلاح وسائل الدفاع، وبذا استطاع أن يردَّ أول هجوم قام به جكرمش، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما أظهره الأرمن المحليون من الولاء والبسالة. غير أن ما أحس به تانكرد من ضغط شديد، حمله على المبادرة بالاستنجاد بيوهمند، ومع أن هذا كان يواجه مشاكل عديدة، إلَّا أنه رأى ألَّا بدَّ من جعل الأسبقية لدرء الخطر عن الرها، فنهض لمساندة ابن أخته، غير أنه عطله ما كانت عليه الطرق من أحوال سيئة. واستبدَّ اليأس بتانكرد فأمر رجال الحامية بأن يتخذوا أماكنهم للهجوم قبل بزوغ الفجر. وتحت جنح الظلام انقضَّ رجاله على الأتراك الذين استغرقوا في نومهم مطمئنين، واكتمل الانتصار الصليبي بوصول بوهمند، فهرب جكرمش مذعوراً، وخلف من ورائه معسكره الزاخر بالثروة، فانتقم الفرنج بذلك من هزيمة حران، وتم احتفاظهم بالرها[١].

كان من بين الأسرى الذين وقعوا في يدي تانكرد أميرة سلجوقية من عقائل بيت جكرمش الذي بلغ من تقديره لهذه السيدة أنه بادر لافتدائها مقابل مبلغ كبير من المال (١٥ ألف بيزنت)، أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه. ويلغت بيت المقدس أنباء هذا العرض، فأسرع الملك بلدوين بالكتابة إلى بوهمند بألَّا يجعل هذه الفرصة تفلت حتى يتم إطلاق سراح بلدوين. غير أن بوهمند وتانكرد احتاجا إلى المال، على حين أن عودة بلدوين سوف تخرج تانكرد من وظيفته الحالية ـ كمسؤول عن الرها ـ ليعود إلى إنطاكية. ولذا ردَّا على رسالة الملك: أنه ليس من الدبلوماسية في شيء أن يظهرا

(١) رنسمان ٢/ ٧٦.

لهفتهما الشديدة على قبول العرض، على حين أنهما إذا تردَّدا في القبول، ربما لجأ جكرمش إلى زيادة الفدية. غير أنه في تلك الأثناء تم اتفاقهما مع جكرمش على قبول عرضه النقدي، وبذا بقي بلدوين في الأسر[١].

تمخضت معركة (حران) (أو البليخ) عن نتائج على مستوى كبير من الأهمية، فقد أوقفت زحف الصليبيين صوب الشرق، وقضت على آمالهم في التقدُّم نحو العراق، وإتمام سيطرتهم على إقليم الجزيرة، كما خيبت مطامح بوهمند في السيطرة على حلب وتحويل إمارة إنطاكية إلى دولة كبيرة[٢]، كما شجعت رضوان، الذي كان على رأس جيشه قرب الفرات يتابع سير المعركة، على القيام بسلسلة من الهجمات على المواقع الصليبية المحيطة بحلب، استطاع خلالها أن يجلوهم عنها بمساعدة أهاليها من المسلمين الذين انقضُّوا على حكامهم الصليبيين[٣]، فأمنت أعمال حلب، وعاد أهلها إليها، وقوي جأش رضوان وامتدت غارات قواته إلى إنطاكية[٤]. ولم تقف نتائج هذه المعركة الحاسمة عند هذه الحدود، بل تعدتها إلى داخل التشكيلات السياسية والعسكرية للإمارات الصليبية؛ فبعد أسر بلدوين غدا تانكرد وصياً على الرها، كما أصبح بوهمند أقوى الأمراء الصليبيين في الشمال، ولذا أهمل كلاهما مسألة افتداء بلدوين الذي بقي في الأسر أربع سنوات[٥] .

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٧٦-٧٧.

(٢) Run ciman :Ahistory of the Crusades 11/44,Grousset:op.cit, 1/403-407, Fink:op. Cit. 1/389.

(٣) Brehier:Vieet mort de Byzance,p.315.

(٤) ابن العديم: زبدة ٢/ ١٤٨-١٤٩ وانظر W.B.Stevenson :The crusaders:in the East,p 78.

(٥) Fink: op cil ., 1/389.

أما الإمبراطور البيزنطي الكسيوس فقد استغل فرصة ضعف مركز بوهمند إثر تعرّضه للانتقاد بسبب عدم افتدائه لرفيقه بلدوين، فضلاً عن عدم التزامه بالمعاهدات التي كان قد عقدها مع الإمبراطور الذي راح يشجع الانتفاضات التي قام بها سكان قليقية ضد حكامهم النورمان[١]، كما أوعز إلى قواته بالاستيلاء على عدد من المدن والمواقع التي كان تانكرد قد استولى عليها من قبل، واشترك الأسطول البيزنطي في السيطرة على بعض المدن الساحلية بين اللاذقية وطرطوس[٢]، يضاف إلى ذلك أن البيزنطيين تمكنوا من استغلال قواعدهم البحرية في قبرص لتقديم المساعدات لريموند الصنجيلي - عدو بوهمند اللدود - الذي كان يسعى لتأسيس إمارة حول طرابلس تحاذى إنطاكية من الجنوب[٣]، في الوقت الذي لم يتقدم فيه أحد من القدس لنصرة بوهمند ومساعدته في هذه المحنة.

وكنتيجة للضربات التي تلقاها بوهمند من المسلمين والبيزنطيين، ضعف مركزه، فضلاً عن أن معركة البليخ أدت إلى فقدانه لعدد كبير من قواته، وانهيار روحهم المعنوية، ولم يكن باستطاعته إعادة تنظيم جيشه من جديد بالسرعة التي تمكنه من ملاحقة الأحداث، فوجب عليه أن يختار أحد طريقين: فهو إما أن يبقى وسط الأخطار المحدقة به من كل جانب، ويعرض إمارته للتمزق والسقوط على يد أعدائه، وإما أن يعود إلى أوربة للقيام بدعوة صليبية جديدة قد تعود بالنصر. وقد اختار الطريق الثاني، فأناب عنه تانكرد في حكم إنطاكية واتجه إلى إيطالية[٤]، واستطاع هناك أن يقنع

(١) Grousset: op . cit.., 1/413-414.

(٢) Ibid : 1/413-414, Runciman: op. cit .,11/46, Cam. Med. Hist. vol. Iv. p341, Brehier: op. cit., p. 314, Stevenson: op. cit. ,pp 078-79.

(٣) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٣٨٦-٣٨٧ Fink op: cit., 1/390

(٤) ابن العديم: زبدة ٢/ ١٤٩، Runciman :op .,11/47, Grousset : op . cit 1/415-416.

البابا (باسكال) بأن العدو الرئيسي لصليبيي الشرق إنما هو الإمبراطور البيزنطي، فأصدر البابا أوامره بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة ضد بيزنطة، وأعلن أن القضاء عليها هو الضمان الوحيد لاستقرار الصليبيين في الشام[١]، مما يعتبر نقطة تحول في تاريخ الحركة الصليبية، إذ ضحى بأهداف ومصالح العالم المسيحي بأجمعه في سبيل المصالح الخاصة لمغامري الفرنج. وسرعان ما تأكد البيزنطيون من أن مخاوفهم أصبحت حقيقة واقعة وذلك بتحول الحرب الصليبية إلى وسيلة لتحقيق أطماع الغربيين الاستعمارية[٢]، وهكذا يمكن اعتبار محاولة بوهمند تلك، أساساً للحملة الصليبية الرابعة التي أسقطت القسطنطينية فيما بعد (٦٠١هـ = ١٢٠٤م)[٣].

وكان لمعركة البليخ نتائج خطيرة بالنسبة لإمارة الرها كذلك، إذ إنها أوضحت احتمال سقوطها على أيدي المسلمين، نظراً للضعف الذي أصابها إثر تلك المعركة، ولتعرضها لكثير من المتاعب الداخلية وبخاصة من جانب الأرمن الذين سرعان ما أبدوا تذمُّرهم من الحكم الصليبي. ويعلل المؤرخ متي الرهاوي موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين تجاه الكنيسة الأرمنية وإهمالها، بل اضطهاد رجالها في كثير من الأحيان، مما دفع الأرمن إلى الاتصال ـ سراً ـ بالأتراك[٤].

وأخيراً فقد أدت تلك المعركة إلى القضاء على حلم الصليبيين بقطع الاتصال بين القوى الإسلامية في الجزيرة والشام وآسيا الصغرى عن طريق الاستيلاء على حلب[٥]، فضلاً عن أن الظروف التي مهدت لها هذه المعركة

---

(١) Vasiliev :Byzantine Empire 11/410-411.

(٢) Runciman : op . cit ., 11/49, Grousset : op . cit ., 1/416, Fink: op ., cit ., 1/391.

(٣) Ostogorsky : History of the Bysentine State , p. 324.

(٤) عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٤٤٥.

(٥) Runciman : op . cit ., 11/44.

أدت إلى زيادة التقارب بين القوى الإسلامية والبيزنطيين ضد عدوهم المشترك الذي وضع بين شقي الرحى. وقد أوضح ابن القلانسي خطورة النتائج التي تمخضت عنها معركة البليخ قائلاً: «وكان نصراً حسناً للمسلمين لم يتهيَّأ مثله، وبه ضعفت نفوس الإفرنج، وقلَّت عدتهم وفلَّت شوكتهم، وقويت نفوس المسلمين وأرهفت عزائمهم في نصرة الدين ومجاهدة الملحدين. وتباشر الناس بالنصر عليهم، وأيقنوا بالنكاية فيهم والإدالة منهم»[١].

وهكذا قدر لجكرمش، بتحالفه مع سقمان، أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الحروب الصليبية، وأن يقدم وحليفه، للعالم الإسلامي، أول نصر حاسم على الصليبيين، فتح به الطريق لظهور قيادات وأحلاف إسلامية وجهت الضربات المتتالية للقوى الصليبية. تلك القيادات التي بدأت بمودود حاكم الموصل السلجوقي، وانتهت بصلاح الدين، عبر إيلغازي وبلك الأرتقيين، وآق سنقر البرسقي، ثم عماد الدين ونور الدين الزنكيين.

ورغم بعض البوادر السلبية التي أعقبت انتصار المسلمين في البليخ، فإن جكرمش ظل يطمح لتحقيق انتصارات أخرى في هذا الميدان. وبعد أقل من سنتين أتيح له ذلك عندما تلقى في أواخر عام (٤٩٩هـ = ١١٠٦م) أمراً من السلطان محمد بالقيام بحملة جديدة لمهاجمة الصليبيين، فاتصل بأمراء المنطقة وتمكن من تشكيل حلف يضم رضوان أمير حلب وإيلغازي الأرتقي أمير ماردين وألبي تمرتاش صاحب سنجار والأصبهبذ صباوا أحد كبار أمراء فارس. إلَّا أن ما طرحه إيلغازي على الأمراء المذكورين، أعاق تنفيذ الخطة المقترحة؛ إذ طلب منهم أن يبدؤوا حملتهم ضد جكرمش بقصد الاستيلاء

(١) ذيل تاريخ دمشق ص١٤٣. وانظر بشأن النتائج غير المباشرة لهذه المعركة:
Vasiliev: Op, Cit., 11/410, Runciman: Op, Cit., 11/49-51.

على الموصل لكسب رضا السلطان محمد الذي كان يحقد على حاكم الموصل بعض تصرفاته، فضلاً عن إمكانية الاستفادة المباشرة من ميزات الموصل وإمكانياتها المالية والعسكرية ضد الصليبيين. فوافقه زملاؤه على ذلك ومضوا سوية لمهاجمة نصيبين التابعة لحاكم الموصل. إلا أن نواب جكرمش هناك نجحوا ـ بتوجيه من سيدهم في الموصل ـ في إثارة النزاع والكراهية بين رضوان وإيلغازي، فاغتنم رضوان فرصة إقامة وليمةٍ أمام أسوار نصيبين وقام باختطاف إيلغازي وتكبيله واعتقاله، إلا أن أتباعه من التركمان تمكنوا من تخليصه، وقاموا بهجوم مباغت على معسكر رضوان أرغمه على الانسحاب والعودة إلى حلب. وبذا تمزق هذا التحالف قبل أن يخطو خطوة واحدة صوب هدفه الأساسي في قتال الصليبيين(١).

إلا أن ذلك كله لم يثن جكرمش عن عزمه على مهاجمة أعدائه الحقيقيين، إذ إنه ما أن تمكَّن من إحباط مساعي الأمراء المتحالفين ضده، حتى بادر بشن هجوم على الرها، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى الموصل ليواجه متاعب جديدة تجاه السلاجقة، بعد أن نجح في التغلب على هجوم قامت به عساكر ريتشارد (سالرنو) الذي كان يحكم الرها آنذاك نيابة عن بلدوين المأسور(٢). ولم يمض وقت قصير على ذلك حتى تحرك قلج أرسلان بن سليمان، سلطان سلاجقة الروم، لمهاجمة الرها، فانتهز نواب جكرمش في حران الفرصة وأرسلوا إليه يستدعونه ليسلموا إليه البلد. فتقدَّم قلج أرسلان إلى هناك ودخل حران «وفرح به الناس لأجل جهاد الفرنج»،

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٥١-١٥٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/٣١٩-٣٢٠.
Vasiliev: op cit ., 11/410-411, Runciman : op . cit ., 11/49-51, chalandon: Alexis comnene , p. 246, Grousset : op . cit .. 1/418.

(٢) رنسمان ٢/ ١٧٧-١٧٨ Fink: op. Cit., 1/395 .

وأقام هناك أياماً اضطر بعدها للعودة إلى بلده بسبب مرض شديد ألمَّ به، تاركاً في حران جماعة من أصحابه لحمايتها[١].

ويبدو أن شخصية قلج أرسلان بدأت تطغى، بما تمتع به من قوة واستقلال ونفوذ، على شخصيات رفاقه من الأمراء المسلمين في المنطقة، بسبب خلافاتهم المستمرة، وتطاحنهم الدائم من أجل تحقيق مكاسب إقليمية محدودة. فضلاً عن أن المشاكل التي جابهت جكرمش في الموصل، وتدهور علاقته مع السلاجقة صرف اهتمامه كلية عن ساحة الجهاد ضد الصليبيين، الأمر الذي أدَّى إلى أن يستقطب قلج أرسلان اهتمام نواب جكرمش في حران فاستدعوه وسلَّموه البلد، مما يفسر لنا ـ كذلك ـ ما حدث بعد قليل من استدعاء قلج أرسلان من قبل أهالي الموصل كي يتولى حكمهم، إثر مقتل حاكمهم السابق جكرمش.

في العام التالي (٥٠٠هـ = ١١٠٦م) اتصل إيلغازي الأرتقي بجاولي سقاوة، أحد كبار أمراء فارس الذي كان السلاجقة قد أرسلوه للقضاء على جكرمش في الموصل، والذي اضطر ـ بسبب مناعة الموصل ـ إلى الانسحاب إلى سنجار. وهناك تم الاتفاق بينه وبين حليفه إيلغازي على السعي من أجل طرد قلج أرسلان الذي كان قد دخل الموصل، إثر وفاة جكرمش، بناء على طلب من أهاليها؛ كما تم الاتفاق بينهما على القيام بمهاجمة إنطاكية، بعد أن تتم لهما السيطرة على الموصل. إلَّا أنَّه ما أن تم القضاء على قلج أرسلان ودخل جاولي الموصل حتى انصرف إلى إعلان العصيان ضد السلاجقة، ونسي اتفاقه مع إيلغازي بصدد مهاجمة صليبيي إنطاكية[٢] والواقع أن العالم الشرقي تأثَّر بزوال شخصية قلج أرسلان،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٥٥.

(٢) المصدر السابق ١٠/١٥٨-١٦١.

فباختفائه انجاب خطر شديد عن بيزنطة في لحظة حرجة كان بوهمند أثناءها على وشك أن يهاجم بلاد البلقان. كما أن مقتله يعتبر بداية مرحلة بالغة الأهميَّة في انفصال الترك بالأناضول عن إخوانهم في أقصى الشرق، فضلاً عن أنه حرم المسلمين في الشام، في الوقت الراهن، من قوة كانت كفيلةً بإقامة الوحدة بينهم[١].




(١) رنسمان ٢/ ١٧٩-١٨٠.

جاولي سقاوة
٥٠٠ ــ ٥٠٢هـ = ١١٠٦ ــ ١١٠٨ م

لم يمض سوى وقت قصير على تولِّي جاولي الموصل، حتى تدهورت العلاقة بينه وبين السلطان السلجوقي الذي اضطر إلى إرسال أميرٍ جديد، هو مودود بن التونتكين عام (٥٠٢هـ = ١١٠٨م) لطرد جاولي من الموصل، وتولِّيها بدلاً عنه. وما أن سمع جوسلين بهذه الأنباء حتى أخذ يسعى لإطلاق سراح بلدوين الذي كان قد أسر في معركة البليخ، والذي غدا مع سائر مخلفات جكرمش، تحت قبضة جاولي. وكان هذا في أمسِّ الحاجة إلى المساعدة لمواجهة الهجوم المقبل من مودود، فرحب بطلب جوسلين، وشرط عليه منحه ستين ألف دينار، والإفراج عن الأسرى المسلمين المعتقلين في الرها، وعقد محالفة عسكرية بين الطرفين. وبينما كانت المفاوضات تجري قُدُماً، خرج جاولي مطروداً من الموصل حيث لم يلقَ مساندة من أهل المدينة الذين فتحوا الأبواب لمودود، واتجه إلى نصيبين التابعة يومئذ للأمير إيلغازي بن أرتق، أمير ديار بكر، وراسله من هناك سائلاً إياه الاجتماع به وتقديم عونه له «وأن يكونا يداً واحدةً. وأعلمه أن خوفهما من السلطان ينبغي أن يجمعهما على الاحتماء منه». إلا أن إيلغازي لم يستجب لطلبه، فسار جاولي إلى الرحبة؛ حيث أقام هناك[1] وبصحبته الأمير بلدوين.

استطاع جوسلين أن يجمع في يسر مبلغ ثلاثين ألف دينار، وقدم بالمال

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٣.

إلى قلعة جعبر الواقعة على نهر الفرات، حيث احتجز جاولي أسيره بلدوين تحت رعاية صاحبها سالم بن مالك العقيلي. وعرض جوسلين على جاولي أن يتخذه رهينة مقابل إطلاق سراح بلدوين. ثم ما لبث جاولي ـ بعد بضعة أشهر ـ أن أطلق سراح جوسلين رغبة منه في توثيق عرى تحالفه مع الصليبيين، واعتماداً على الوعد الذي بذله جوسلين بدفع المبلغ كاملاً، وبعد أن أخذ اثنين من أقرباء الأميرين الصليبيين رهائن لديه. وما أن وصل جوسلين منبج حتى أغار عليها وأعمل في أطرافها نهباً، وكان في صحبته جماعة من قوات جاولي، فأنكروا عليه ذلك واتهموه بالغدر، فكان جوابه: إن هذه المدينة ليست لكم !![1].

كان تانكرد قد ظلَّ طيلة سنوات أسر بلدوين الأربع، سيد الرها وحاكمها المطلق، فلم يشأ أن يتخلَّى له عنها. وعندما وصل بلدوين الرها أعلن تانكرد عن موافقته على تحصيل المبلغ المطلوب لافتدائه، وقدره ثلاثون ألف دينار، غير أنه رفض أن يعيد المدينة إليه إلَّا إذا حلف له يمين الولاء، إلا أن بلدوين، باعتباره تابعاً لملك بيت المقدس، رفض رغبة تانكرد وتوجَّه ساخطاً إلى تل باشر حيث لحق به جوسلين، وأرسلا إلى جاولي من هناك يطلبان مساعدته، كما التمسا ـ كذلك ـ مساعدة كواسيل الأرمني أمير كيسوم ورعبان الذي كان يشاركهما الكراهية لتانكرد بسبب أطماعه في قلقيلية وبغضه للأرمن. ولم يسع تانكرد إلا أن يزحف على تل باشر؛ حيث جرت مناوشة طفيفة عقد بعدها اجتماع ساده التنافر، ولم يتوصلوا فيه إلى تسوية. فتحرك بلدوين شمالاً يلتمس حلفاء آخرين، بعد أن عزز تحالفه مع جاولي بأن أهداه مئة وستين أسيراً من المسلمين جهزهم بالعتاد. وما لبث أن قفل عائداً بعد أن حصل على عدد من الحلفاء من قادة

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٧٤.

المسيحيين والأرمن. ولم يكن تانكرد مستعداً لإثارة غضب جميع الأرمن، فضلاً عن أن برنارد بطريرك إنطاكية جعل كل نفوذه إلى جانب بلدوين، الأمر الذي حمل تانكرد على التنازل عن الرها لبلدوين حيث استقبل هناك بمظاهر الغبطة والسرور[١].

لم يكن ذلك إلا هدنة مؤقتة أخلص بلدوين أثناءها صداقته لجاولي، وأعاد إليه عدداً كبيراً من الأسرى المسلمين، وسمح بإعادة بناء المساجد في سروج، وأمر بإعدام كبير قضاة سروج الذي لم يكن مقبولاً لدى السكان بسبب مروقه عن الدين. وكان أصحاب جاولي في سروج قد سمعوه يقول في الإسلام قولاً شنيعاً، فضربوه، وجرى نزاع بسببه بينهم وبين الفرنج، فذكر ذلك لبلدوين فقال: «هذا لا يصلح لنا ولا للمسلمين» وقتله[٢]. وما لبث السلطان السلجوقي أن أرسل أحد أمرائه ليصلح الحال مع جاولي، ويأمر قواته بالمسير بصحبة ابن عمار صاحب طرابلس لجهاد الصليبيين، فحضر الأمير عند جاولي، وأمره بتسليم البلاد التي تحت حوزته للسلطان، وطيَّب قلبه نيابة عنه، وضمن له حسن العاقبة إذا سلَّم البلاد وأظهر الطاعة والانقياد لأوامر السلطان، فأجابه جاولي «أنا مملوك السلطان وفي طاعته»، وسعى إلى استغلال الفرصة واستعادة الموصل من مودود، لكنه أخفق في مسعاه، وعاد الأمير (الموفد) إلى السلطان يحمل إليه طاعة جاولي وولاءه[٣].

ارتاع رضوان أمير حلب لتحالف جاولي مع جوسلين وبلدوين، ذلك أن جاولي كان يهدد ممتلكاته على نهر الفرات، وردَّ رضوان على ذلك بأن

(١) رنسمان ٢/ ١٨١-١٨٣، الكامل ١٠/ ١٧٣-١٧٤
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٤.
(٣) المصدر السابق ١٠/ ١٧٤-١٧٥.

أغار على قافلة تجارية كان من بين ما تحمله شطر من المال الذي افتدى بلدوين نفسه به، وكان مرسلاً من تل باشر إلى مقر جاولي؛ كما فرض الجزية على سكان الرقة بإقليم الجزيرة، الأمر الذي اعتبره جاولي عملاً عدائياً فقام في خريف ٥٠٢هـ = ١١٠٩م بشن هجوم على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات، على بعد خمسين ميلاً من حلب، وتمكن من الاستيلاء عليها، وقتل كبار أنصار رضوان فيها، وأضحى بذلك يهدد حلب نفسها. فبادر رضوان إلى طلب العون والمساعدة من تانكرد، وأرسل إليه «يعرفه ما عليه جاولي من الخداع ويحذره منه، ويعلمه أنه على قصد حلب، وأنه إن ملكها لا يبقى للفرنج بالشام معه مقام؛ وطلب منه الاتفاق على منعه». فأجابه تانكرد إلى ذلك وبرز من إنطاكية ليتلقاه وقواته ستمئة فارس أرسلهم رضوان لمرافقته.

فقام جاولي من جهته بالاستنجاد بحليفيه جوسلين وبلدوين، وأطلق للأخير ما تبقى بذمته من مال[1]، فجهَّز كل من بلدوين وجوسلين بضع مئات من فرسانهما انحازا بهم إلى جاولي عند منبج، وبلغ عدد الجيش المتحد نحو ألفي رجل. أما رضوان وحليفه فأعدَّا لهم ما يزيد على ذلك بقليل. ودارت المعركة قريباً من تل باشر، واشتد وطيسها بين مسيحيين ومسلمين من جهة، ومسيحيين ومسلمين من جهة أخرى. واستطاعت قوات جاولي أن ترد بالتدريج صليبيي إنطاكية وتكبدهم خسائر فادحة، إلَّا أن الدائرة ما لبثت أن دارت على قوات جاولي وحلفائه بسبب طمع البدو بخيول حلفائهم الصليبيين، وتسلَّل عدد كبير من جند جاولي والتحاقهم بوالي الموصل الجديد: مودود، مما كان له تأثيره السيِّئ على سير القتال الذي انتهى بهزيمة جاولي وحلفائه الصليبيين، وكاد جوسلين وبلدوين أن

(١) المصدر السابق ١٠/ ١٧٥.

يقعا في الأسر. ولم تقل خسائر المسيحيين عن ألفين من الرجال. ومن ثم انسحب جوسلين إلى مقره في تل باشر. واتجه بلدوين إلى دلوك حيث قام تانكرد بمحاولة لحصاره هناك، غير أنه رجع عن عزمه حينما شاع خبر قدوم جاولي.

وما لبث جوسلين وبلدوين أن استعادا الرها، أما جاولي فقد لجأ إلى الرحبة، بعد أن قتل من أتباعه عدد كبير، وقام أمير إنطاكية بنهب أموالهم وأعتدتهم. وسرعان ما علم جاولي أن لا مقام له في الجزيرة أو الشام، سيما بعد أن خضعت منطقة الموصل والجزيرة لغريمه مودود. فلم يبق أمامه إلَّا أن يطرق باب السلطان محمد في أصفهان، ويستأمنه على نفسه[١].

كان من نتائج معركة تل باشر أن كره سكان الرها من الأرمن حكم اللاتين، مثلما كرهوا حكم النورمان الذي يمثله رتشارد نائب تانكرد على إمارة الرها، فأرادوا أن يستقلوا، أو أن يتَّخذوا واحداً منهم أميراً عليهم، فحاولوا الاتصال بكواسيل، أمير كيسوم الأرمني، كي يتولى أمرهم، غير أن هذه المحاولة أحبطت بقدوم بلدوين وجوسلين إلى الرها، حيث أنزلا بالأرمن أشد العقاب، وبادرا بالضرب على أيديهم دون هوادة أو رحمة. ومنذ سنة ٥٠٢هـ = ١١٠٨م زال التعاون الذي كان قائماً بين الأرمن والصليبيين، وأصبحت السلطة كلها بأيدي هؤلاء، وأضحى الأرمن موضع ريبة وشك وأبرز دليل على ذلك ما حدث سنة (٥٠٦هـ = ١١١٢م) حينما حاولوا تسليم الرها لمودود لدى قتاله للصليبيين، وترتب على ذلك طرد

---

(١) رنسمان ٢/ ١٨٣-١٨٥، Grousset: op. Cit., 1/439-440, Fink: op. Cit., 1/394، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٧٤-١٧٦، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٥٣-١٥٤ وهو يشير - خطأ - إلى أن جاولي بلغه - خلال القتال - أن الفرنج يريدون الاجتماع عليه، فمال على أصحابه من الفرنج وقتلهم عن آخرهم ثم هرب، وهلك جميع رجالة تانكرد وأكثر خيله.

السكان الأرمن من الرها[١] إلَّا أن أهم نتائج تلك الحرب المزدوجة، ولا ريب، أنها أضاعت الفرصة على الصليبيين لتحطيم قوة الترك حول الرها. فلم يلبث أن تولى الموصل مودود الذي يعتبر من أوائل الداعين لحركة الجهاد وتوحيد الجبهة الإسلامية؛ ومن المحقق أيضاً أن الترك لم يغتنموا هذه الفرصة لمهاجمة قوات الصليبيين المنقسمة على نفسها[٢].



(١) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٤٥٣-٤٥٤. Grousset: op. Cit., 1/442.

(٢) Ibid., 1/440-442, Fink: op. cit., 1/394.

مودود بن التونتكين
٥٠٢ ــ ٥٠٧ هـ = ١١٠٨ ــ ١١١٣ م

يحتل مودود مكانة خاصة في تاريخ الجهاد ضد الصليبيين؛ وقد أسهمت في تكوين هذه المكانة عوامل عدة أهمها ـ ولا ريب ـ الفترة المبكرة التي ظهر فيها، والطابع الإسلامي العميق لشخصيته المتفانية في سبيل أهداف المسلمين الكبرى، وسياسته الداخلية العادلة السمحة، وقدرته ـ بناءً على ذلك كله ـ على تزعُّم حركة الجهاد، وإيجاد نوع من التنسيق، ربما لأول مرَّة، بين كافة القوى الإسلامية في ساحات الجهاد، الأمر الذي لن نجده متبلوراً وناضجاً إلَّا في عهد الأراتقة وزنكي فيما بعد.. وأخيراً، نجاحه في وضع الصليبيين في مواضع الدفاع، وتحقيقه عدداً من الانتصارات، جاء أحدها عند مرتفعات طبرية في قلب فلسطين، بعيداً عن الساحة التي درج عليها الصراع بين ولاة الموصل السابقين وأعدائهم... ثم جاء مقتله السريع، إثر ذلك، في جامع دمشق على أيدي الباطنية، الأعداء الشرسين لحركة الجهاد والمقاومة، والحزن العميق الذي شمل جماهير المسلمين بُعَيْدَ اغتياله والكلمات المخلصة التي فاه بها قبيل استشهاده.. جاء ذلك كله لكي يؤكِّد مكانة مودود الإسلامية كبطل من أبطال الحروب الصليبية، ورائد من رواد الجهاد الأولين.

جال مودود بقواه الإسلامية ثلاث جولات ضد الصليبيين، كانت أولاها عام (٥٠٣هـ = ١١٠٩م) بعد أشهر قليلة من استتباب الأمر له في الموصل، وبعد أن تلقَّى أمراً من السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه بالتحرك لقتال الصليبيين. فبدأ مودود بتشكيل تحالف إسلامي ضم الأمير إيلغازي الذي

تقدم على رأس قواته الضخمة من التركمان، وسكمان القطبي أمير أرمينية، وعدداً كبيراً من المتطوعين. وهكذا «اجتمع المسلمون في عدد لا يقوم بلقائه جميع الإفرنج»[١]. واتفقت آراؤهم على بدء عملياتهم بمهاجمة الرها والاستيلاء عليها، فاتجهوا إليها ونزلوا عليها في شوال (٥٠٣هـ = ١١٠٩م) وشددوا عليها الحصار[٢]. وما أن وصلت أنباء احتشاد القوات الإسلامية إلى الصليبيين، حتى أرسل بلدوين لي بور، أمير الرها، يستنجد بملك بيت المقدس، إذ كان يشكُّ بنوايا تانكرد أمير إنطاكية وبأنه تآمر مع المسلمين ضد الرها[٣]. إلّا أن بلدوين لم يتوجَّه لمساعدة أمير الرها إلا بعد انتهائه من احتلال بيروت، وتوحيد أمراء الصليبيين في جبهة واحدة انضم إليها كثير من العناصر المسيحية[٤]، كما أرسل إلى إنطاكية يستدعي تانكرد وقواته للمشاركة في المعركة الفاصلة ضد المسلمين[٥]، فاضطر هذا، حفاظاً على سمعته، إلى التوجه على رأس ألف وخمسمئة فارس للاجتماع برفاقه[٦]، ومن ثم شخص الجميع صوب الرها.

وصلت الأنباء إلى طغتكين أمير دمشق فتحرك من هناك على رأس قوات كبيرة، نحو الفرات الذي لم يتمكَّن الصليبيون من عبوره بسبب انتشار طلائع

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٩.
(٢) المصدر السابق ص١٦٩، ابن العديم: ٢/ ١٥٤-١٥٥، ابن تغري بردي: النجوم ٥/ ١٩٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان (المخطوطة) ١/ ٣/ ٢٦٥ب، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١٢/ ٤٠-٤١.
(٣) Albert d' Aix: op. Cit., P. 670.
(٤) Runciman : op . cit ., 11/116 , Grousset : op .cit ., 1/453, Sterenson : op . cit ., 1/ 88.
(٥) Fink: op. Cit. 1\399.
(٦) Stevenson: op. Cit. 1\88.

القوات الإسلامية في سائر المنافذ المؤدية إليه. ولما عرف المسلمون قرب الصليبيين منهم قرروا فتح الطريق أمامهم ليتمكنوا من لقائهم في السهول الممتدة شرقي الفرات. فغادروا الرها في أواخر ذي الحجة سنة (٥٠٣هـ = ١١١٠م)، وعسكروا في أرض حران، التابعة لإيلغازي، خدعة للصليبيين. وإذ أدرك هؤلاء الهدف من هذه المناورة[١] ووردتهم أنباء تحرك رضوان لمهاجمة المواقع التابعة لإنطاكية، وتحرك المصريين لمهاجمة فلسطين، أيقنوا خطورة الاشتباك مع القوات الإسلامية، وقرروا الانسحاب من الجهات الممتدة شرقي الفرات صوب المواقع الغربية التابعة لهم، وإخلاء المناطق المذكورة من المسيحيين المحليين (الأرمن واليعاقبة)، وتعزيز الإمكانيات الدفاعية للرها ولكن ما أن بدأ الصليبيون بعملية الانسحاب ونقل المسيحيين المدنيين[٢]، حتى نهض المسلمون في إثرهم، وأدركتهم طلائع القوات الإسلامية فتمكنت من قتل وأسر وإغراق عدد كبير منهم، والاستيلاء على مقادير كبيرة من ميرتهم وأعتدتهم. ومن ثم اتَّجه المسلمون ثانية لحصار الرها. إلّا أن حصانة هذه المدينة، واهتمام العدو بتموينها صدت المسلمين عن فتحها، فتركوا عليها قوة لمراقبتها وعادوا إلى بلادهم[٣].

إن ما حدث خلال المعارك السالفة، من استئصال شأفة الأرمن الذين استقروا في الرها قبل مستهل العصر المسيحي، واشتهروا بالثراء والمثابرة على العمل، برغم أنهم ليسوا موطن ثقة من الناحية السياسية، أنزل بالإقليم ضربة لم ينهض منها مطلقاً. ومع أن كونتات الفرنج ظلوا يحكمون الرها بضع سنوات أخرى، فالثابت أن سلطان الفرنج فيما وراء الفرات ـ شرقاً ـ

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٦٩-١٧٠، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٥٤-١٥٦.

(٢) Stevenson: op. Cit., 1\88.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٧٠-١٧١، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/ ٤٠-٤١.

كان مصيره الفشل الذريع، وأدى هذا الفشل إلى تعاسة السكان المسيحيين الوطنيين الذين خضعوا لحكومة الرها (الصليبية). وبلغ الغيظ من بلدوين ليبور أنه قاد كتيبة من العسكر اجتاز بها النهر عائداً للانتقام من مودود، غير أن تفوُّق المسلمين في العدد جعل اليأس يدبُّ في نفسه، وكاد بلدوين يتعرض للهلاك لولا أن بادر لإنقاذه الملك بلدوين وتانكرد رغم أن الأخير كان يكنُّ له كرهاً عميقاً[١].

وجاءت الجولة الثانية بعد أقل من سنتين، إثر الاستنفار الذي دعا إليه وفد من أهالي حلب قدم إلى بغداد للدعوة إلى الجهاد، بعد ما رأوا من تمادي رضوان في إذعانه للصليبيين، والهزائم المتتالية التي مُنِيَ بها مسلمو الشام والتي سقط على إثرها عدد من المواقع بأيدي الأعداء. وقد استفز نداء الوفد الحلبي جماهير بغداد وفقهاءها، فقاموا بتظاهرة واسعة طالبوا المسؤولين خلالها، خلفاء وسلاطين، بضرورة إعلان الجهاد وتسيير الجيوش لوقف الزحف الصليبي. وصادف في الوقت نفسه أن استقبل الخليفة سفارة من الإمبراطور البيزنطي الكسيوس، كان أعضاؤها قد تلقَّوا، فيما يبدو تعليمات تقضي بأن يتناقشوا مع السلطات الإسلامية حول احتمال القيام بعمل مشترك ضد تانكرد أمير إنطاكية. ولقد استفزت هذه المفاوضات جماهير المتظاهرين، بعد أن رأوا كيف أن الإمبراطور المسيحي غدا أكثر حمية على قتال الفرنج من خليفة المسلمين وسلاطينهم. وقد أسرع الخليفة بإعلام السلطان السلجوقي بما جرى، وطلب منه الاهتمام بالأمر، والإسراع بالاستجابة لنداءات المسلمين، فأصدر هذا أوامره على الفور إلى واليه على الموصل الأمير مودود بتشكيل تحالف إسلامي جديد جاعلاً القيادة الاسمية لابنه الملك مسعود[٢].

---

(١) رنسمان ٢/ ١٩٠-١٩١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٢-١٧٣

ضمَّ التحالف الجديد الذي قاده مودود عدداً كبيراً من الأمراء كان من بينهم سكمان القطبي أمير أرمينية، وبرسق حاكم همذان، والأمير أحمديل الكردي صاحب مراغة، وأبو الهيجاء صاحب أربل؛ أما إيلغازي الأرتقي أمير ماردين فقد أناب عنه ولده (إياز) لانشغاله بالمشاكل الداخلية لإمارته. وقد بدأ هذا التحالف عملياته العسكرية بالاستيلاء على عدد من المواقع الصليبية في إقليم شبختان، شرقي الفرات، وتوجه قادته من ثم إلى الرها لحصارها، فلما أعيتهم بسبب تحصيناتها واستعداداتها الدفاعية، تحولوا عنها إلى تل باشر[1] كي يجرُّوا أعداءهم إلى عبور الفرات فيتمكَّنوا منهم. إلَّا أن هذا كان خطأً من قادة المسلمين، لأن الصليبيين تمكنوا لدى عبورهم الفرات من نقل مقادير كبيرة من الميرة والأعتدة والأقوات إلى الرها، فقويت من بعد ضعف كاد يوقعها بأيدي المسلمين لو استمروا على حصارهم لها[2]. وما لبث جوسلين صاحب تل باشر، الذي تعرض لضغط القوات الإسلامية، أن تمكن من رشوة القائد الكردي أحمديل الذي كان الجزء الأكبر من قوات المسلمين بمعيته فانسحب متراجعاً بالرغم من معارضة سائر الأمراء[3].

ولم يمض وقت طويل حتى استنجد رضوان بمودود واستدعى قواته للقدوم إلى حلب كي يعملوا سوية من هناك ضد المواقع الصليبية. فغادر مودود تل باشر متجهاً إلى حلب على رأس قواته، وما أن ابتعدوا عن تل باشر حتى خرج إليهم جوسلين، على رأس قوة من فرسانه، وتمكن من مهاجمة مؤخرتهم، وقتل ما يقرب من ألف رجل منهم، وعاد إلى بلده مثقلاً بالغنائم[4].

---

(١) الكامل ١٠/ ١٨٣-١٨٤، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٨٧-٨٨، ٤١٢-٤١٣،

(٢) الغزي: نهر الذهب ٣/ ٨٢.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٧٥، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٣٥-٣٦

(٤) Albert dAIX, P. 681.

لم تكن دعوة رضوان لمودود صادقة، فلم تكد القوات الإسلامية تقترب من حلب حتى أقفل رضوان بوجهها الأبواب، واتخذ من إجراءات الحيطة لمنع المظاهرات أن أمر باعتقال عدد كبير من أعيان المدينة واتخذهم رهائن. ولم يسع مودود إلَّا أن يتحرَّك بجيشه جنوباً إلى شيزر بعد أن أغار على عدد من المواقع الصليبية في الشمال. وفي شيزر اجتمع به طغتكين، الذي كان قد توجه إلى بغداد طالباً المساعدة لاستعادة طرابلس، إلَّا أنه خاف أن تؤخذ منه دمشق فشرع في مهادنة الصليبيين سراً.

أما تانكرد الذي عسكر أمام شيزر فإنه تراجع إلى أفامية، وأرسل إلى الملك بلدوين يستنجد به، فاستجاب له هذا وبعث إلى سائر الفرسان في الشرق الصليبي ليلحقوا به، فانضم إليه عدد كبير منهم؛ كما قام تانكرد باستدعاء أتباعه من سائر جهات إنطاكية.

أما مودود فقد تحصن خلف أسوار شيزر قبل أن يكتمل حشد الصليبيين الذين بلغ عددهم نحو ستة عشر ألف مقاتل كان على رأسهم ملك بيت المقدس، وأمراء الرها وإنطاكية وطرابلس. ورفض مودود أن يجرَّه أعداؤه إلى معركة حاسمة. إلَّا أن الأمور لم تجر على نحو طيب في جيشه، إذ إن طغتكين لم يشأ أن يبذل له المساعدة إلَّا بعد أن تعهد مودود بالمضي في حملته إلى الجنوب لقتال الصليبيين في فلسطين، رغم خطورة هذه المحاولة من الناحية العسكرية.

أما برسق الكردي فأصابه المرض وأراد أن يعود إلى بلاده، ومات سكمان القطبي فجأة فانسحبت عساكره صوب الشمال حاملة جثمانه. وبادر أحمديل إلى الانسحاب بعساكره محاولاً انتزاع جانب من ممتلكات سكمان. ولم يعد بوسع مودود القيام بالهجوم نظراً لتناقص قواته يوماً بعد يوم، كما

أنه لم يكن راغباً في أن يقضي الشتاء بعيداً عن الموصل، فقفل عائداً إليها[١].

كان لتلك البوادر السيئة من قبل بعض الأمراء أثرها المباشر على إمكان تحقيق أي نصر حاسم ضد الصليبيين، كذلك الذي حققه جكرمش وسقمان في معركة البليخ. وقد أظهرت هذه الأحداث مدى تفكُّك القيادات الإسلامية وعدم وحدتها، في الوقت الذي تجمعت فيه القوى الصليبية في شمالي الشام وجنوبه، وحققت لبلدوين ملك بيت المقدس نوعاً من الزعامة على سائر أمراء الصليبيين[٢]، ولعل ما حدث من الألفة بين بعض قادة المسلمين وأعدائهم في الشام، والخوف من انتزاع الإقطاعات وإعادة توزيعها إذا انتصرت قوات السلاجقة في الشام، وحرمان الأسرات العريقة من إقطاعاتها، كل ذلك حمل رضوان وتانكرد على أن يسوِّيا ما بينهما من

(١) رنسمان ٢/١٩٧-٢٠١، ابن الأثير: الكامل ١٠/١٨٣-١٨٤، الباهر: ص١٧-١٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٣٥-٣٦، ابن خلدون: تاريخ ٥/٨٧-٨٨، ٤١٢-٤١٣، ابن تغري بردي: النجوم ٥/٢٠١، الغزي: نهر الذهب ٣/٨٢، ابن العديم: زبدة ٢/١٥٨-١٦١، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/٤٠-٤١. ويخطئ ابن كثير (البداية والنهاية ١٢/١٧٣) في الإشارة إلى أن إيلغازي الأرتقي حضر بنفسه العمليات الحربية لهذا التحالف . أما ابن القلانسي (الدمشقي) فإنه يبالغ في الدفاع عن موقف طغتكين، حاكم دمشق، وإبرازه بمظهر الحريص على وحدة المسلمين وأهداف الجهاد، فيقول مثلاً «سار طغتكين للقاء العساكر الإسلامية، لكنه لم ير منهم عزيمة صادقة للجهاد.. واستجرهم الى معرة النعمان، ولكنه ظهر له منهم سوء نية فنفر منهم . فاتفق مع مودود، وتأكدت المعاهدة بينهما .. وتفرقت العساكر برغم إلحاح طغتكين بقصد طرابلس»، ثم يقول: «.. وتسلط الأتراك، أتباع مودود وطغتكين، على جوانب الفرنج، وامتنع أحدهم عن الخروج . ثم رحلوا الى أفامية وتعدوها وتبعهم المسلمون وتخطفوا أطرافهم، وعادوا إلى شيزر .. ففرح الناس واستحكمت المودة بين مودود وطغتكين» (ص١٧٤-١٧٨)، ونقل عنه سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/٣٦-٣٧.

(٢) Fink: op. Cit., 1/400.

مشاكل، وأن يعملا على الاحتفاظ بالوضع الراهن في الشام. ولذا لم يتعاون رضوان مع الجيش التركي، وأقدم على عقد هدنة مع تانكرد لقاء أن يقف على الحياد. وصار رضوان يعتبر جيش مودود عدواً له، واشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد إليه. أما طغتكين فإنه على الرغم من شدة تعلقه بحركة الجهاد، فإنه كان حريصاً أيضاً، مثل رضوان، على الإبقاء على الأوضاع في الشام كما هي، واشتد قلقه من الترك فسعى إلى مهادنة الفرنج سراً(١).

ما لبث مودود أن قام في أواخر ذلك العام (٥٠٥ هـ) بهجوم جديد على الرها، معتمداً على نفسه فحسب هذه المرة، بعدما جرعه حلفاؤه من مرارة في حملتهم المشتركة ذلك العام؛ وظل مودود على رأس قواته في المنطقة، وراح يجني محصولاتها الزراعية حتى مطلع العام التالي، ومن ثم رحل عنها إلى سروج، وفعل في منطقتها ما فعله في الرها. ولم يمض سوى وقت قصير على ذلك، حتى انتهز جوسلين صاحب تل باشر غفلة من القوات الإسلامية المتفرقة في المنطقة، فدهمها بخيله وقتل عدداً من مقدمي المسلمين وجندهم، كما تمكن من استياق معظم ماشيتهم، وعندما استعد المسلمون لرد الهجوم، كان هو قد تقهقر مسرعاً إلى سروج(٢). غير أن أهم ما ترتب على حملة مودود تلك من أحداث هو المؤامرة التي دبرها الأرمن لتسليم الرها للمسلمين، تخلصاً من اضطهاد الفرنج وظلمهم المتزايد. إلا أن جوسلين اكتشف المؤامرة وأنقذ بلدوين صاحب الرها بأن أنذره بالخطر، وانحاز إليه حيث اتخذا معاً إجراءً حاسماً ضد المتآمرين(٣).

---

(١) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٤٦٠ Grousset: op. Cit., 1/465-66

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٨١، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٦، سبط ابن الجوزي: مرآة ٧/ ٣٩.

(٣) رنسمان ٢/ ٢٠١.

لم يلبث مودود أن تلقى في أواخر عام ٥٠٦هـ رسالة من حليفه طغتكين يستنجده فيها ضد بلدوين ملك بيت المقدس، الذي كان قد تابع غاراته حينذاك ضد إمارة دمشق، وأعمل في بلادها نهباً وتخريباً، حتى إن المواد الغذائية انقطعت عن دمشق، وغلت فيها البضائع غلاءً فاحشاً. ولم يتمهل مودود في تلبية طلب حليفه[1]، وتحرك غرباً حيث انضم إليه كل من تميرك صاحب سنجار والأمير إياز بن إيلغازي الأرتقي. وعبر الفرات في أواخر ذي القعدة سنة ٥٠٦ هـ.

فتخوف الصليبيون لتحرُّكه، وأرسلوا إلى طغتكين يبذلون له بعض الحصون، وألّا يتعرَّض أي من الطرفين للآخر، فلم يجبهم إلى ذلك، الأمر الذي دفع بلدوين إلى القيام بمزيد من الغارات على إمارة دمشق. وما أن سمع طغتكين نبأ اقتراب حليفه من دمشق، حتى خرج إلى سلمية لاستقباله هناك، واتفق رأيهما على التوجه جنوباً للقاء بلدوين، حيث نجحا في استدراج الملك شمالاً صوب أراضي دمشق، باتجاه جسر الصنبرة الواقع عند المجرى الأعلى لنهر الأردن، وقد نسي، لأول مرة، ما اشتهر به من الحذر.

وكان اللقاء في الحادي عشر (أو الثالث عشر) من محرم، قريباً من طبرية، حيث اشتد القتال، بعد أن قام طغتكين بقطع الجسر، وصبر الفريقان؛ وما لبث المسلمون أن أنزلوا بأعدائهم هزيمة ساحقة، وراحوا يعملون فيهم قتلاً وأسراً، كما غرق عدد كبير منهم في بحيرة طبرية ونهر

(١) يشير ابن القلانسي (تاريخ دمشق ص١٨٤) أن حساد مودود كانوا ـ آنذاك ـ قد دسوا له عند السلطان «بأنه عازم على العصيان، وأنه غدا مع طغتكين يداً واحدةً» فبعث مودود إلى السلطان من يعرب له عن إخلاصه وبراءته «والاعتذار عما رمي به، والاستعطاف له، والإعلام بأنه جار على ما ألف منه من إخلاص الطاعة والمناصحة بالخدمة والاهتمام بالجهاد».

الأردن، وأصيب ملكهم بجرح تسبب في وفاته في العام التالي، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم. وتراجع الصليبيون باتجاه مضائق طبرية، بعد أن فقدوا نحواً من ألفي قتيل، وهناك التحقت بهم عساكر طرابلس وإنطاكية بقيادة أميريها بونز وروجر اللذين كان بلدوين قد استنجد بهما قبيل المعركة، الأمر الذي أنقذ قوات بيت المقدس من كارثة محقَّقة. وتبعهم المسلمون وأحاطوا بهم من كل ناحية، بينما أوى الفرنج إلى جبل غربي طبرية وأقاموا هناك ستة وعشرين يوماً «والمسلمون بإزائهم يرمونهم بالنشاب فيصيبون من يقرب منهم»، ووصلت عسكر المسلمين آنذاك نجدة تتكون من مئة فارس أرسلها رضوان على سبيل المعونة، خلافاً لما كان قد قرره من الإسهام الكامل إلى جانب أميري الموصل ودمشق في القتال ضد الأعداء، فأنكر مودود وطغتكين موقفه المتردد هذا، وأبطلا العمل بما كانا قد عزما عليه من إقامة الخطبة له.

ولم يشأ المسلمون أن يخاطروا بمهاجمة كل قوات أعدائهم، فأنهوا حصارهم وساروا إلى بيسان حيث راحوا يهاجمون ويخرِّبون بلاد الصليبيين الممتدة بين عكا والقدس، ويقتلون من يقع في أيديهم من الصليبيين، وأثبتت مملكة بيت المقدس عجزها عن الدفاع عن نفسها، فسرعان ما أضحى الإقليم تحت رحمة المسلمين فهرب سكان المدن والقرى والفلاحون ولحقوا بالقوات الإسلامية، وأصاب الفرنج ـ كما يقول مؤرخهم وليم الصوري ـ من الذلة والانكسار والخوف، ما جعلهم لا يجرؤون على مغادرة الاستحكامات والحصون.

وسيَّر مودود وحليفه رسولاً إلى السلطان السلجوقي في أصفهان يبشرانه بما تم على أيديهما من فتح، وبعثوا مع الرسول بعض ما غنموه، وعدداً من أسرى الفرنج ورؤوسهم. إلَّا أن بُعْدَ المسلمين عن بلادهم، وانقطاع الإمداد

والتموين عنهم، واشتداد البرد عليهم، اضطرهم إلى وقف عملياتهم في المنطقة والعودة إلى دمشق في الحادي والعشرين من ربيع الأول، على أمل الرجوع ثانيةً لقتال الصليبيين عند حلول الربيع، وبعد أن يتلقى مودود جواب السلطان على رسالته، والتعليمات التي سيصدرها بهذا الصدد. إلَّا أن مودود ما لبث أن قتل في جامع دمشق على أيدي الباطنية، أثناء خروجه عقب صلاة الجمعة الأخيرة من ربيع الآخر، الأمر الذي وضع حداً لخططه المشتركة مع حليفه أمير دمشق في قلب فلسطين، إذ شرعت قواته تتأهب للعودة إلى الموصل، وغيرها من البلاد التي انطلقت منها لتنضوي تحت لواء مودود(١).

ما لبث أن انتشرت شائعات تقول: إن طغتكين هو الذي حرَّض على قتل مودود لحرصه على الاحتفاظ باستقلاله في دمشق، ولما ساوره من القلق على بقاء القائد العام لجند السلطان في دمشق، وما يترتب على ذلك من تهديد لاستقلاله(٢).

ولم يحدَّ من هذه الشائعات قيام طغتكين بقتل الجاني تبرئة لنفسه، إذ اعتبره الرأي العام هو الجاني، غير أنهم التمسوا له العذر بما دبره مودود من خطط للاستيلاء على دمشق(٣)، إلَّا أن كلًّا من ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي ـ اللذين يميلان بعض الميل لأتابكة دمشق ـ ينفيان هذه التهمة عن

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٦-١٨٧، الباهر ص١٨-١٩، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٦٣-١٦٤، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٨٤-١٨٨، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٤٢-٤٣، السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٣٠، الذهبي: دول الإسلام ٢/ ٢٥، رنسمان ٢/ ٢٠٥-٢٠٦. (وانظر القسم الأول من هذا البحث).

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٧، الباهر ص١٨-١٩، الأصفهاني: آل سلجوق ص١٥٨-١٥٩، أبو الفدا: المختصر ٤/ ١٤٥.

(٣) رنسمان ٢/ ٢٠٥-٢٠٦.

طغتكين أشد النفي. فيقول أولهما: «فقلق أتابك طغتكين لوفاته على هذه القضية، وتزايد حزنه وأسفه، وكذلك سائر الأجناد والرعية»[١]، ويقول ثانيهما: «وقلق طغتكين لوفاة مودود على هذا الشكل وحزن حزناً شديداً وكذا سائر الناس. وذكر بعضهم أن طغتكين خاف منه فوضع عليه من قتله، وليس بصحيح، فإن طغتكين كان أحب الناس إليه، وحزن عليه حزناً لم يحزنه على أحد، وشقَّ ثوبه عليه، وجلس في عزائه سبعة أيام، وتصدَّق عنه بمال جزيل»[٢].

ونحن نرجح رواية المؤرخين المذكورين، وهما من سكان دمشق، بسبب قربهما الزمني أو المكاني من الأحداث المذكورة، واطلاعهما الشامل على دقائق العصر الذي يتكلمان عنه. أما روايات ابن الأثير والذين نقلوا عنه والمؤرخين الغربيين فلا تعدو أن تكون استنتاجاً وتخميناً، سيما وأن هذه ليست أول، ولا آخر، مرة يتصدَّى فيها الباطنية لاغتيال زعماء الجهاد الإسلامي؛ فضلاً عن أن انتصار مودود وحليفه في فلسطين يعود بالنفع على إمارة دمشق قبل غيرها، بما يحدثه في صفوف قوات بيت المقدس من إرباك وبما يقدمه لأتابكية دمشق وأراضيها من حماية.

تأثر المسلمون لمصرع بطل من أبطال الجهاد، اشتهر بإخلاصه وتفانيه وجرأته، وحزنوا حزناً عميقاً لاختفائه السريع، بعد الانتصار العظيم الذي حققه مع حليفه في قلب البلاد الصليبية، وبعد الخطط التي كان على اعتزام تنفيذها هناك؛ وقد عبرت جماهير دمشق عن حزنها وغضبها، حيث شهدت المدينة اضطراباً لم تشهد له مثيلاً منذ فترات بعيدة، ولم يهدئ من روع

---

(١) تاريخ دمشق ص١٨٧-١٨٨.

(٢) مرآة الزمان ٨/ ٥١.

الناس سوى أملهم بنجاة القائد من الجراح التي أثخنته، لكنهم ما أن سمعوا نبأ استشهاده بعد ساعات قلائل، حتى عادوا ـ ثانية ـ إلى ما كانوا عليه[١].

وكتب ملك الفرنج في بيت المقدس كتاباً إلى طغتكين جاء فيه: «إن أمة قتلت عميدها، يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها»[٢]!! غير أن ملك الفرنج وغيره من أمراء الصليبيين، تجاهلوا، أو تعمدوا التجاهل آنذاك، إن ما هو أكثر عوناً لهم وأشد خطراً على كل محاولة إسلامية لقتالهم، ليست هي الأمة التي ظنوا أنها قتلت (عميدها في بيت معبودها)، فقد عرفنا موقف هذه الأمة من مقتل بطلها المجاهد، إنما هي تلك الفرقة الباطنية التي قامت على مذهب جديد، شديد الميل إلى التدمير، كان قد أنشأه في بلاد فارس، شخص يدعى الحسن بن الصباح. ولم تكن كراهية الحشاشين هؤلاء للمسيحيين تزيد على بغضهم للمسلمين السنيين.

ولعل استعداد رضوان للتعاون مع تانكرد أمير إنطاكية، يرجع إلى حد كبير إلى ميله لمذهبهم. وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى أن أول حادث اغتيال قاموا به في الشام هو ما وقع سنة ١١٠٣م من اغتيال جناح الدولة أمير حمص. ولم تمض ثلاث سنوات على ذلك حتى قتلوا خلف بن ملاعب أمير أفامية، غير أنه لم يفد من مصرعه سوى الفرنج في إنطاكية. ومع أن الباطنية لم يكشفوا ـ حتى ذلك الوقت ـ عن سياستهم إلا بما أقدموا عليه من اغتيالات متفرقة، فإنهم أضحوا عاملاً في السياسة الإسلامية لم يسع المسيحيون أنفسهم إلا تقديره[٣].

---

(١) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٨٧-١٨٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/١٨٧، الباهر ص١٨-١٩، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨ / ٥١.

(٣) رنسمان ٢/ ١٩٣-١٩٥، وانظر عن نشاط هذه الفرقة المرجع التالي: Fink: op. Cit., 1\403.

ولا شك أن الفرنج فرحوا لما حدث من مصرع مودود، لاختفاء عدو اعتبروه من أشد الخصوم كفاية وقدرة وصلابة. يضاف إلى ذلك أنهم أفادوا من تخوُّف طغتكين من سلطان بغداد ـ بسبب اتهامه باغتيال مودود ـ فأدى ذلك إلى عقد هدنة مع بلدوين سنة (٥٠٨هـ = ١١١٤م)، بل إن طغتكين مضى إلى أبعد من ذلك، فعقد محالفة مع أمراء الفرنج في السنة التالية. إذ إن ما أحاط بمصرع مودود من أحوال ولدت الشكوك والمخاوف بين الترك، ودمرت قدراً كبيراً من الوحدة التي كرس حياته لتحقيقها[1].




(١) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٤٦٤.

آق سنقر البرسقي

٥٠٧ ــ ٥٠٩، ٥١٥ ــ ٥٢٠ هـ =

١١١٤ ــ ١١١٥، ١١٢١ ــ ١١٢٦ م

قام السلطان محمد، بعد مقتل مودود، بتعيين جيوش بك على ولاية الموصل، وما لبث أن عزله واستبدله بآق سنقر البرسقي، قائده المحنك، بعد أن أمره بقتال الصليبيين والسير على ذات الطريق التي كان سلفه مودود قد سلكها من قبل في ساحات الجهاد. ولم يكن البرسقي بأقل من مودود تفانياً وإخلاصاً، ومقدرة عسكرية، وصبراً على القتال. وقد بدأ تحرُّكه من بغداد صوب الموصل عام ٥٠٧هـ (= مايس ١١١٤م) على رأس قوات كبيرة، وكان يصحبه ـ وفقاً للعادة السلجوقية المتبعة ـ الملك مسعود بن السلطان محمد ليكون الحاكم الاسمي لولاية الموصل والقائد الرسمي لحركة الجهاد السلجوقية؛ وانضم إلى قوات البرسقي عدد كبير من الأمراء، كل على رأس جنده. وبعد أن دخل البرسقي الموصل وفرض سيطرته على الأقاليم التابعة لها، توجه لمهاجمة حرَّان، فاستنجد نائب الأراتقة هناك بصليبيي الرها يدعوهم لمساعدته ضد البرسقي، فلما أحس أهالي البلد وبعض مسؤوليها بذلك، راسلوا البرسقي واستحثوه على الوصول إليهم، فتقدم إلى حران وتمكن من دخولها بسهولة بالغة، بسبب وقوف الأهالي إلى جانبه[1]. ومن ثم اتجه إلى ماردين لدعوة إيلغازي الأرتقي للانضمام إلى حملته، إلَّا أن رفض إيلغازي لنداء المبعوث السلجوقي، اضطر الأخير إلى مهاجمة ماردين وإرغام أميرها على إرسال قوة من الأتراك، بقيادة ابنه إياز،

---

(١) ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (المخطوطة) ورقة ١٧ آ، ب.

للاشتراك في الجهاد تحت لواء البرسقي[١] الذي غادر منطقة ماردين على رأس خمسة عشر ألف مقاتل لمهاجمة الرها، فبلغها في ذي الحجة، وفرض الحصار عليها، إلّا أن الدفاع المستميت الذي أبدته الحامية القوية التي كلفت بالدفاع عنها، وتوافر المؤن في المدينة، على حين تناقصت مؤن المسلمين رغم ما حصلوا عليه من قرى المنطقة، ما لم يكن يكفي لسد حاجتهم، أرغم البرسقي على مغادرة المدينة بعد حصار دام نحو شهرين، بعد أن قام بتخريب بعض جوانب بلدها، ومهاجمة عدد من المواقع الصليبية القريبة منها[٢].

ما لبث الأرمن أن هيّؤوا للبرسقي مجالاً جديداً للحركة والعمل. إذ إن ما حدث سنة (٥٠٦ = ١١١٢م) من مؤامرة قاموا بها لتسليم الرها لمودود ـ كما مر بنا ـ تكرر في السنة التالية، حينما كان مودود على وشك الإغارة على بلاد الفرنج، وكان بلدوين كونت الرها وقتذاك في تل باشر يدير إقطاع جوسلين. واكتشفت المؤامرة الثانية في الوقت المناسب، وأصر بلدوين على نقل جميع سكان الرها من الأرمن إلى سميساط. على أن بلدوين عاد فأذن للأرمن بالعودة إلى الرها سنة (٥٠٨هـ = ١١١٤م) بعد أن لقنهم درساً قاسياً. غير أن فريقاً منهم ارتحل إلى بلاد واسيل دغا وريث كواسيل الأرمني على إمارة مرعش وكيسوم ورعبان[٣] الذي كان قد ارتاع لمحاولات الصليبيين المتكررة للاستيلاء على أملاكه. وعندئذ أرسل هو ووالدته إلى البرسقي يدعوانه لتخليصهما من الفرنج. فلم يسع البرسقي إلّا أن يرسل أحد قادته، وهو سنقر الطويل، إلى كيسوم للتفاوض مع واسيل دغا. وعندما سمع

(١) انظر: ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/ ٧٩-٨٠ وابن خلدون: تاريخ ٥/ ٤٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩-١٩٠، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٨٩-٩٠، رنسمان ٢/ ٢٠٨-٢٠٩.

(٣) من مدن الثغور الواقعة بين الشام وبلاد الروم (ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٧٩١، ٤/ ٣٣٣، ٤٩٨).

الفرنج بما حدث، قاموا بمحاولة لمهاجمة سنقر وحلفائه الأرمن، إلا أنها باءت بالفشل دون أن تحقق أية نتيجة[١].

توجه البرسقي بعد ذلك إلى منطقة شبختان جنوبي ديار بكر، ونشب خلاف بينه وبين إياز بن إيلغازي انتهى باعتقاله انتقاماً منه بسبب عدم اشتراك أبيه في القتال، وأعقب البرسقي ذلك القيام بمهاجمة المناطق الزراعية المحيطة بماردين، فأسرع إيلغازي بالتوجه إلى حصن كيفا للاستنجاد بابن أخيه ركن الدولة داود بن سقمان، فاستدعى هذا قوات ضخمة من التركمان وسار معه للقاء البرسقي. وفي أواخر السنة المذكورة التقى الطرفان، وجرى قتال شديد صبر فيه الفريقان، وانتهى بهزيمة البرسقي وتفرق قواته، ونجاة إياز من الاعتقال. وما أن علم السلطان السلجوقي بنبأ هزيمة قائده حتى أرسل إلى إيلغازي يتهدده، فخاف هذا عاقبة الوعيد، وتوجه إلى دمشق للالتقاء بحليفه وحميه طغتكين، الذي كان هو الآخر قد تدهورت علاقته بالسلطان بسبب اتهامه إياه بقتل مودود في العام الماضي كما مرَّ بنا[٢].

وهكذا أخفقت حملة البرسقي التي كان بإمكانها أن تمضي قدماً، بما تهيأ لها من عدد كبير من المقاتلين، لتحقيق مزيد من الانتصارات ضد الصليبيين، إلا أن البرسقي انساق وراء رغبته الشديدة في إخضاع أراتقة ماردين لإرادته كممثل للسلطان السلجوقي، الأمر الذي انتهى بفشل ذريع مزق قواته شر ممزق، ودفعه هو إلى التخلي عن قيادته والعودة إلى مقر ولايته في الموصل؛ حيث انزوى هناك عدة أشهر يجتر آلامه، بعيداً عن

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩، رنسمان ٢/ ٢٠٩-٢١١.

(٢) ابن الأثير الكامل ١٠/ ١٨٩-١٩٠، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٩١، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٥٢، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/ ٧٩-٨٢، الذهبي: دول الإسلام ٢/ ٢٦.

مجريات الأحداث الخطيرة التي أعقبت هزيمته. ثم ما لبث في العام التالي (٥٠٩هـ) أن تلقَّى أمر عزله واستبداله بالأمير (جيوش بك) فاتجه إلى إقطاعه في الرحبة حيث أخذ يرقب الأمور من هناك. وبقي في إقطاعه ذاك لحين وفاة السلطان محمد عام (٥١١هـ = ١١١٧م) حيث التحق ثانية بخدمة السلاجقة في العراق[١].

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٤. ولم ينس البرسقي ـ وهو في الرحبة ـ واجبه في جهاد الصليبيين كأمير يحكم منطقة قريبة من مجالات نشاطهم. وكان أشهر مواقفه ضدهم آنذاك ما تم عام ٥١٠ هـ حينما قام أمير طرابلس بحشد قواته والتقدم إلى سهل البقاع لإنزال الخراب به. وكان البرسقي قد وصل حينذاك إلى دمشق على رأس عدد من قواته، فاستقبله طغتكين أحسن استقبال واتفق رأيهما على التوجه لضرب القوات الصليبية بسرعة قبل أن تتمكن من الوصول إلى هدفها. يقول ابن القلانسي: «فهجموا عليهم وهم لا يشعرون، فلم يتمكَّنوا من ركوب الخيل، وكثر فيهم القتل والنهب، ولم يفلت سوى أمير طرابلس ونفر يسير، واستولى الأتراك على الغنائم، وقيل بأن قتلى الفرنج زادوا على الثلاثة آلاف وعاد طغتكين والبرسقي في عسكريهما إلى دمشق مسرورين بالنصر والغنائم .. واستقبلهما الناس بالفرح .. وتوجه البرسقي عائداً إلى بلده بعد استحكام المودة بينه وبين طغتكين، والاعتضاد على الجهاد متى حدث أمر» (ذيل تاريخ دمشق ص١٩٧-١٩٨، وانظر سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٦٣).

ولقد أدرك البرسقي منذ ذلك الحين أهمية حلب في جهاد الفرنج، فأخذ يسعى لضمها إلى إقطاعه في الرحبة، سيما بعد أن حصل على منشور رسمي من السلطان بإقطاعه إياها. ودبَّر عام ٥١٠ هـ خطة تمكن أصحابه بواسطتها من اغتيال لؤلؤ الخادم متولي أمور حلب، لكن الفرصة أفلتت بسيطرة ياروقتاش، أحد خدم رضوان، على مقدرات حلب واستنجاده بصليبيي إنطاكية وتنازله لأميرها روجر عن أحد المواقع القريبة من حلب، ومنحه مبلغاً من المال، وسماحه له بتقاضي المكوس عن قوافل حلب، الأمر الذي اضطر البرسقي على التخلي عن هدفه والتوجه إلى دمشق، حيث أكرمه أميرها ووعده المساعدة على تحقيق بغيته (ابن العديم: زبدة الحلب ٢/ ١٧٧-١٧٩). وفي العام التالي (٥١١) تقدم البرسقي إلى حلب يصحبه حليفه طغتكين، وأرسل إلى أهلها يطلب منهم تسليمها إليه فامتنع المتسلطون على مقدراتها عن إجابته وأرسلوا إلى روجر ثانية يستنجدونه لدفع البرسقي عنهم، فاضطر هذا إلى التراجع إلى الرحبة وعاد حليفه إلى دمشق (زبدة الحلب ٢/ ١٨٠-١٨١).

ولقد كان من نتائج هزيمة البرسقي ـ كذلك ـ أن دفع حلفاؤه الأرمن الثمن باهظاً حيث اضطر الأمير الأرمني واسيل إلى التنازل لبلدوين عن أملاكه جميعاً (رعبان وكيسوم...) والتوجه إلى القسطنطينية. وأعقب بلدوين ذلك بالعمل على استئصال شأفة ما تبقى من الإمارات الأرمنية الواقعة في وادي الفرات؛ حيث لم يبق سوى على إمارة واحدة، وبذلك فقد الأرمن ثقتهم بالفرنج[١].

أقام إيلغازي في دمشق عدة أيام اتفق فيها مع طغتكين على إعلان العصيان ضد السلاجقة والالتجاء إلى الصليبيين للاحتماء بهم، فراسلا روجر أمير إنطاكية طالبين محالفته، وكان من البديهي أن يستجيب هذا لطلبهما، ومن ثم اجتمع الأمراء الثلاثة قريباً من حمص، وأقرُّوا شروط التحالف، وعاد كل من روجر وطغتكين إلى بلده، أما إيلغازي فقد اعتزم التوجه إلى ديار بكر لجمع التركمان والعودة ثانية للاجتماع بحليفه. إلَّا أنه ما أن ابتعد مسافة قصيرة عن حمص حتى لحقه صاحبها خيرخان بن قراجا، وقد تفرَّق عنه أصحابه، فأسره وبعض خواص أمرائه، وأرسل إلى السلطان يعلمه بذلك، ويطلب منه الإسراع بإرسال قواته قبل أن يتمكن طغتكين من تخليص حليفه. وعندما بلغ طغتكين الخبر قفل عائداً إلى حمص وأرسل إلى خيرخان يطلب منه إطلاق سراح حليفه، فرفض الأخير طلبه وهدد بقتل إيلغازي إن لم يرجع طغتكين عن حمص، فاضطر هذا إلى الرجوع. وانتظر خيرخان وصول قوات السلطان دون جدوى، فخاف أن يباغته أصحابه ويسلموا حمص إلى طغتكين، فعدل إلى الصلح مع إيلغازي، وأطلق سراحه[٢].

(١) رنسمان ٢/ ٢١٠-٢١١ GROUSSET: OP. CIT., 1\493

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٨٩-١٩٠، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص١٩١، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ٥٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٨٩-٩٠. ٣٢٤-٣٢٥، ٤٨٣-٤٨٥، ابن تغري بردي: النجوم ٥/ ٢٠٨، ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٧٨، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/ ٧٩-٨٢)، CAHEN: OP. CIT., PP. 270-272.

كان السلطان السلجوقي قد جهز عسكراً ضخماً لدى سماعه أنباء هزيمة البرسقي، وعصيان إيلغازي وطغتكين وتحالفهما مع الصليبيين، وأعطى قيادته لبرسق بن برسق حاكم همذان. ويبدو أن السلطان لم يعد يطمئن إلى قدرة ولاته في الموصل على القيام بمهام قيادة القوات السلجوقية ضد الصليبيين، سيما بعد مقتل مودود وهزيمة البرسقي، ورأى أن اختيار أحد أمرائه المقربين في بلاد فارس، كفيل بتجاوز نقاط الضعف التي أصابت الحملات السابقة؛ لكنه لم يشأ في الوقت نفسه أن يجعل الموصل، رائدة الجهاد ضد الصليبيّين، بمنأى هذه المرة عن الإسهام مع قواته الجديدة الذاهبة للجهاد، فأمر عساكرها بالالتحاق بقوات برسق كي تعمل تحت إمرته في المهمة التي ألقاها السلطان على عاتقه. وقد انضم إلى حملة برسق، فضلاً عن ذلك عدد من أمراء بلاد فارس والعراق والجزيرة[1] كان أبرزهم جيوش بك والي الموصل السابق، والذي رشح ثانية لهذا المنصب إثر عودته من حملة برسق.

أصدر السلطان محمد أمره إلى قواته بأن يبدؤوا عملياتهم بالقضاء على عصيان إيلغازي وطغتكين ومن ثم التوجه لقتال الصليبيّين واكتساح مواقعهم، وكان لؤلؤ الخادم، الوصي على حلب، قد انضم إلى إيلغازي وطغتكين لغرض الحصول على بعض المكاسب الإقليمية. وهكذا لم يبق موالياً للسلاجقة من أمراء الشام سوى بني منقذ في شيزر وخيرخان صاحب حمص. وما أن عبر برسق الفرات (في سنة ٥٠٨ = ١١١٥ م) حتى اتجه إلى حلب لاتخاذها قاعدة لعملياته الحربية، وأرسل إلى لؤلؤ الخادم وشمس الخواص، مقدم عسكر حلب، يأمرهما بتسليم المدينة بناء على أمر السلطان، وعرض عليهما كتبه بهذا الصدد فما كان منهما إلَّا أن أخذا يراوغانه في الإجابة، وأرسلا إلى إيلغازي وطغتكين يستنجدان بهما. فتقدَّم هذان على رأس ألفي فارس ودخلا حلب وتمكنا من تعزيز مقاومتها. وحين

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٢، رنسمان ٢/ ٢١٢.

ذاك اضطر برسق إلى ترك حلب والتوجه إلى «حماه» التابعة لطغتكين، فحاصرها وفتحها عنوة، ثم منحها للأمير خيرخان، في الوقت الذي كانت الأوامر تقضي بتسليم السلطان السلجوقي كل مدينة أو موقع يتم إخضاعه بواسطة قواته، الأمر الذي أدخل الاضطراب في صفوف قوات برسق وأفقدها تماسكها وطاعتها.

وخلال ذلك كان طغتكين وإيلغازي وشمس الخواص قد اتجهوا إلى إنطاكية واستجاروا بأميرها روجر وطلبوا منه مساعدته للدفاع عن حماه، فلما بلغهم نبأ الاستيلاء عليها، واجتمع بهم في إنطاكية كل من بلدوين ملك بيت المقدس وبونز كونت طرابلس وبلدوين أمير الرها، اتفق رأيهم على مناورة قوات برسق وعدم الدخول معها في اشتباك حاسم بسبب ضخامة عددها، لحين دخول الشتاء الذي سيضطر قادتها إلى التفرق والعودة كل إلى بلده.

ومن ثم اجتمع الصليبيون وحلفاؤهم في قلعة أفامية بانتظار ما سيحدث، وكانت قواتهم تضم عشرة آلاف مقاتل؛ أما قوات برسق فقد عسكرت في قلعة شيزر متَّخذة منها قاعدة لعملياتها العسكرية بسبب ولاء حكامها من بني منقذ للسلاجقة. وبقي كلا الطرفين في معسكره طيلة شهرين، وجرت بينهما بعض المناوشات[1].

وما أن حلَّ الشتاء، ورأى الصليبيون وحلفاؤهم انسحاب قوات برسق صوب الجزيرة حتى تفرقوا وعاد كل قائد إلى بلده. إلَّا أن قوات برسق التي كان انسحابها مجرد مناورة بارعة، سرعان ما كرت عائدة واتجهت لمهاجمة كفر طاب الصليبية وتمكنت من الاستيلاء عليها عنوة، حيث منحها برسق

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار ص٩٠-٩٢، ويذكر ابن العديم: (زبدة الحلب ٢/ ١٧٤-١٧٥) أن طغتكين كان «يريث الفرنج عن اللقاء خوفاً من أن يكسروا العساكر السلطانية فيأخذوا الشام جميعها، أو ينكسر الفرنج فتستولي العساكر السلطانية على ما في يده».

لبني منقذ، ثم توجه لمهاجمة أفامية فامتنعت عليه، فتقدم إلى المعرة التابعة هي الأخرى للصليبيين، وسرعان ما تلقى من لؤلؤ في حلب كتاباً، أغلب الظن أنه صدر عن خيانة صاحبه، وربما عن حيلة وخداع، يعتذر له فيه عما ارتكبه من ذنوب، ويطلب منه أن يرسل إليه قوة لتسلم حلب فأجابه برسق إلى طلبه وأرسل جيوش بك بقواته إلى هناك الأمر الذي أضعف مقدرة برسق العسكرية إلى حدّ كبير، وما لبث أن تعرض لهجوم مباغت شنّته عليه قوات روجر أثناء تحرُّكه شمالاً. ونشب القتال عند تل دانث فحلت الهزيمة بقوات برسق، وقتل الصليبيون وأسروا عدداً كبيراً منهم، كما أحرقوا ونهبوا ميرتهم، فاضطر برسق إلى التراجع والعودة ـ من ثم ـ إلى بلاد فارس بعد أن تفرَّقت عساكره، وبعد أن ثأر من إيلغازي بقتل ابنه إياز الذي كان محتجزاً لديه[١].

وهكذا انتهت هذه المحاولة بالمصير نفسه الذي انتهت إليه المحاولات السابقة التي قادها البرسقي: تشتت قوات السلطان، وتفرق قادتها في البلاد. وكان السبب في كلتا الحالتين مشاحنات وأحقاد ومطامع شخصية مزقت قوى المسلمين إلى حين من أخطار مجابهات واسعة كهذه مع قوى المسلمين وقيادات السلاجقة. ولقد أنهت هزيمة تل دانث آخر محاولة جادة

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ١٩٢-١٩٣، ابن العديم: زبدة ٢/ ١٧٤-١٧٦، ابن منقذ: الاعتبار ص٩٠-٩٢، أبو الفدا: المختصر ٢/ ٢٣٩-٢٤٠، ابن كثير ١٢/ ١٧٨-١٧٩، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٩٠-٩٢، ٤٨٥-٤٨٦، ابن الفرات: تاريخ (المخطوطة) ١/ ٨٣-٨٨، الذهبي: دول ٢/ ٢٦-٢٧، رنسمان ٢/ ٢١٢-٢١٥: ويرى (Fink) أنه بالرغم من العداء والقتال المستمر بين الأتراك والصليبيين في الشام، فإنه كان بوسعهم أن يتحالفوا لمواجهة الأعداء القادمين من وراء بلاد الشام. إلَّا أننا بتتبعنا لسير الأحداث اتضح لنا خطأ وجهة نظر Fink هذه. ذلك أن القوات الإسلامية التي حالفت صليبيي الشام لم تقتصر على بلاد الشام، فإيلغازي كان يحكم في ديار بكر بعيداً عن حدود الشام، كما أن قوات السلطان ضمت ـ من جهة أخرى ـ عناصر من مسلمي الشام مثل خير خان وبني منقذ. فلم يكن الصراع في هذه المعارك ـ إذن ـ ذا مسحة إقليمية وإنما كان سياسياً محضاً.

قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام، وقوّت مركز روجر، أمير إنطاكية، الذي تمكن بانتصاره ذاك من تخليص الإمارات الصليبية جميعاً من خطر أكيد.

ولقد بلغت الإمارات الصليبية الشمالية، إثر هذه الموقعة، قمة مجدها، ووجدت الفرصة سانحةً أمامها لتحقيق انتصارات أخرى في المنطقة ضد القوى الإسلامية المفكّكة[1].

إلّا أن مما لا ريب فيه أن توقف المحاولات السلجوقية لقتال الصليبيين في الشام، أدى إلى أنْ غدا هؤلاء يجابهون أسرات محلية كالأراتقة أولاً، والزنكيين والأيوبيين فيما بعد، ركزت جل اهتمامها على أمور الجزيرة والشام، وفاقت في خطورتها وشدتها محاولات السلاجقة وولاتهم في الموصل[2] الأمر الذي أتاح لمسلمي المنطقة تجميع قواهم بشكل أشد تركيزاً، وأعمق تماسكاً، وأكثر تنظيماً في مجابهتهم لأعدائهم الغزاة.

إلّا أننا يجب ألّا ننسى ـ في هذا المجال ـ أن السلاجقة ظلوا إلى فترات متأخرة يوجهون نوعاً من الاهتمام إلى الدور الذي يجب أن تتسنمه الموصل في قيادة حركة الجهاد، وأنهم كانوا يصدرون أوامرهم بين الحين والحين لولاتهم هناك بالتحرك لقتال الفرنج. ونحن نذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ ما ذكره ابن الأثير في أحداث عام ٥١٥هـ؛ حيث يقول: «في صفر أقطع السلطان محمود مدينة الموصل وأعمالها وما يضاف إليها... الأمير آق سنقر البرسقي، وتقدَّم إلى سائر الأمراء بطاعته، وأمره بمجاهدة الفرنج وأخذ البلاد منهم[3]». وما ذكره في أحداث عام ٥١٨هـ حيث يقول: «عزل البرسقي عن شحنكية العراق، وأرسل إليه السلطان يأمره بالعودة إلى

(١) رنسمان ٢/ ٢١٦

(٢) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٣٢٩

(٣) الكامل ١٠/ ٢٢٤.

الموصل والاشتغال بجهاد الفرنج»[١]. ثم جاء ترشيح زنكي ـ فيما بعد ـ دليلاً واضحاً على حرص السلاجقة على منح إمارة الموصل وأقاليمها للقائد الذي يستطيع أن يتصدى للغزاة بجدارةٍ وأمانة.

إلَّا أن الفرق الأساسي الذي يجب أن نلاحظه إزاء موقف السلاجقة قبل معركة تل دانث أنهم كانوا يبذلون اهتماماً جاداً في ميدان الجهاد، ويسعون إلى الإشراف المباشر ـ عن طريق كبار أمرائهم الذين كانوا يختارونهم من بلاد فارس ـ لتوجيه القتال. أما بعد دانث، فلم يكن الأمر يعدو إصدار الأوامر والمراسيم الرسمية إلى ولاتهم بمجاهدة الفرنج، ويتركون لهم بعد ذلك حرية التصرف في الحركة والقتال.

أدت الهزائم التي مُنيَ بها كل من البرسقي وبرسق إلى تضاؤل دور الموصل في حركة الجهاد ضد الصليبيين ففقدت أثر الهزيمة الأولى دورها القيادي في هذا المجال، ودخلت إثر الهزيمة التالية في عزلة استغرقت سنوات طوالاً، (فيما بين ٥٠٩ ـ ٥١٨هـ = ١١١٥ ـ ١١٢٤م). ولقد أسهمت عوامل عديدة، خلال هذه الفترة، في تأكيد عزلة الموصل؛ أهمها: انهماك ولاة الموصل في الصراع الذي لم يفتر بين سلاجقة العراق وبلاد فارس من أجل السلطة، وظهور الأراتقة في ديار بكر كقوة إسلامية شابة متماسكة في مجابهتها للصليبيين، وتولي زعمائها إيلغازي وبلك، قيادة حركة الجهاد، تلك التي بدأت بضم حلب إلى ممتلكات الأراتقة في ديار بكر عام (٥١١هـ = ١١١٧م) واستمرت طيلة عهد إيلغازي وابن أخيه بلك اللذين حققا انتصارات حاسمة ضد الصليبيّين. إلَّا أن مقتل بلك في مطلع عام (٥١٨هـ = ١١٢٤م) وهو في قمة نشاطه ضد الأعداء، ومجيء تمرتاش بن إيلغازي إلى الحكم في ديار بكر وحلب، أنهى مرحلة قيادة الأراتقة لحركة الجهاد،

(١) المصدر السابق نفسه ١٠/ ٢٣٧.

وأعاد للموصل ـ ثانية ـ دورها الأصيل في هذا الميدان، بسبب ما تميز تمرتاش به من رغبة في الدعة والمسالمة، وعكوف على الترف والرفاهية، وتساهل إزاء مطامع الصليبيّين وعدم الجدية في مجابهتهم؛ الأمر الذي وضع حلب ـ ثانية ـ في مركز حرج، إذ غدت هدفاً لهجمات الصليبيّين الذين مدُّوا أبصارهم للاستيلاء عليها وتأمين ممتلكاتهم في شمالي الشام، فضلاً عن اتخاذها منطلقاً لمد نفوذهم باتجاه الشرق والجنوب الشرقي، أي: صوب الجزيرة والعراق.

ويذكر ابن الأثير كيف أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور الساحلية، إثر مقتل غريمهم اللدود بلك الأرتقي «طمعوا وقويت نفوسهم وتيقَّنوا الاستيلاء على بلاد الشام، واستكثروا من الجموع. ثم وصل دبيس بن صدقة أمير الحلة ـ الذي كان قد فرَّ من العراق بسبب خصامه مع العباسيين والسلاجقة ـ فأطمعهم طمعاً ثانياً لا سيما في حلب، وقال لهم: إن أهلها يميلون إليَّ لأجل المذهب، فمتى رأوني سلموا البلد إليَّ. وبذل لهم على مساعدته بذولاً كثيرةً، وقال: إنَّني أكون هاهنا، نائباً عنكم ومطيعاً لكم»[1]. ولم يكن دبيس يرى أي مانع من التحالف مع الصليبيّين بما عرف عنه من عداء مستمر للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[2]. وقد تمكَّن من التوصل مع الصليبيّين إلى اتفاق تكون حلب ـ بموجبه ـ له أما الأموال فتكون لهم، فضلاً عن بعض المواقع القريبة من حلب[3].

بدأ الصليبيون هجماتهم على المناطق الزراعية المحيطة بحلب، وأنزلوا بها خسائر فادحة قدرت بمئة ألف دينار، وقاد الهجوم أميرا إنطاكية والرها يساندهما دبيس أمير الحلة، ثم ما لبثوا أن فرضوا الحصار على حلب من

---

(١) الكامل ١٠/ ٢٣٧.

(٢) GROUSSET: OP CIT., 1\625

(٣) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٢-٢٢٣، ابن منقذ: الاعتبار ص١٠٣، ١٢٠-١٢١:

شتى جهاتها[١] - «ووطّنوا أنفسهم على المقام الطويل، وأنهم لا يغادرونها حتى يملكوها، وبنوا البيوت لأجل البرد والحر»[٢]، وراحوا يشنُّون هجماتهم عليها، ويقطعون الأشجار المحيطة بها، كما قاموا بتخريب مشاهد كثيرة، ونبشوا قبور المسلمين وسلبوهم أكفانهم، وعمدوا إلى من لم تنقطع أوصاله منهم فربطوا الحبال بأرجلهم وسحبوهم أمام أنظار المسلمين وجعلوا يقولون: «هذا نبيكم محمد»، وأخذوا مصحفاً من إحدى مشاهد حلب الخارجية ونادوا: «يا مسلم أبصر كتابك» ثم ثقبه أحد الفرنج بيده وشده بخيطين وربطه بأسفل برذونه، فراح هذا يروث عليه، وكلما أبصر الفرنجي الروث على المصحف صفق بيديه وضحك عجباً وزهواً[٣]!!

لم يكتف الصليبيون بهذا، بل راحوا يمثّلون بكل من يقع بأيديهم من المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى مجاراتهم بالمثل، وأخذت جماعات من مقاتلي حلب تخرج سراً لتغير على معسكرات الأعداء، فتقتل وتأسر ثم تنسحب إلى داخل المدينة. وخلال ذلك كانت الرسل تتردد بين الطرفين للتوصل إلى اتفاق، ولكن دون جدوى، حتى ضاق الأمر بالحلبيين[٤]، فاتفقوا على إرسال وفد من أعيان حلب لاستدعاء حسام الدين تمرتاش الأرتقي. وخرجوا ليلاً متجهين إلى ماردين، وعندما بلغوها كان أميرها منهمكاً في الاستيلاء على بعض المواقع المجاورة، وكان هذا سبباً في إهماله أمر حلب. وكانت الرسل قد ترددت - قبل ذلك - بينه وبين البرسقي

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٣-٢٢٥.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧-٢٣٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٢.

(٣) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٣-٢٢٥، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة (قسم حلب المنشور) ص ٤٥.

(٤) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٥، ابن القلانسي، تاريخ دمشق ص٢١٢، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧-٢٣٨، ابن الشحنة: المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص٢١٨-٢١٩.

في الموصل لتوحيد جهودهما ضد الصليبيّين وإجلائهم عن حلب، ولكنَّ انهماكه في توسيع إمارته في ديار بكر شغله عن هذا الأمر.

وبقي الحلبيون في ماردين فترة من الزمن يحثون تمرتاش على إنجاد حلب وهو يعدهم ويمنيهم ويماطلهم دون أن يقدم على أي إجراء جاد، فأعلموه أنهم لا يريدون سوى أن يصل بنفسه وأن الحلبيين سيكفونه أمر الصليبيّين[١].

ازدادت الأحوال في حلب سوءاً، وقلَّت الأقوات فيها، وانتشر المرض، وضعف جندها عن القتال بسبب الجوع والإنهاك والمرض، واتبع بعض مسؤولي حلب سياسة جائرة تجاه السكان، فصادروا أملاكهم وسلطوا الجند عليهم[٢]. وظهر للحلبيين من تمرتاش الوهن والعجز[٣]، فكتب أحدهم إلى الوفد في ماردين يخبرهم بما آل إليه أمر حلب من الجوع والمرض وأكل الميتات. فوقع هذا الكتاب بيد تمرتاش فتملكه الغضب وقال: «انظروا إلى هؤلاء يتجلَّدون عليَّ ويقولون: إذا وصلتَ فأهل حلب يكفونك أمرهم ـ أي: أمر الصليبيين ـ ويغدرون بي حتى أصل في قلة، وقد بلغ بهم الضعف إلى هذه الحالة»[٤]. ثم أمر بمراقبة الوفد كي لا يغادر أعضاؤه ماردين للاستنجاد بأمير آخر. ولكن هؤلاء تمكنوا من تدبير وسيلة للهرب، ومن ثم اتجهوا إلى الموصل للاستنجاد بالبرسقي[٥].

كان البرسقي حينذاك مريضاً، وكان الضعف قد بلغ به مبلغاً عظيماً، فمنع الناس من الدخول عليه. وعندما استؤذن للوفد الحلبي بالدخول أذِنَ لهم، فدخلوا عليه واستغاثوا به وشرحوا له الأخطار التي تحيق بحلب

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٥-٢٢٦

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٣-٢٣٨.

(٤) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٦-٢٢٧.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٢٢٧-٢٢٨، ابن الفرات: تاريخ (مخطوطة) المجلد الثاني، ورقة ٨٥ـ ٨٦.

ومدى الصعوبات التي يعانيها أهالي المدينة، فأجابهم البرسقي: «إنكم ترون ما أنا فيه الآن من المرض، ولكني قد جعلت لله عليَّ نذراً لئن عافاني من مرضي هذا لأبذلن جهدي في أمركم، والذب عن بلدكم، وقتال أعدائكم». ولم تمضِ ثلاثة أيام على مقابلته للوفد الحلبي حتى فارقته الحمى وتماثل للشفاء. وسرعان ما ضرب خيمته بظاهر الموصل ونادى قواته أن تتأهب لجهاد الصليبيّين واستنقاذ حلب. وفي غضون أيام معدودات غدا جيشه على أهبة الاستعداد. فغادر الموصل متجهاً إلى الرحبة، وأرسل من هناك إلى طغتكين أمير دمشق وخيرخان بن قراجا أمير حمص يطلب منهما مساعدته في إنجاز مهمته، فلبّى هذان الأميران دعوته وبعثا بعساكرهما للانضمام إلى جيش البرسقي الذي كان قد تحرك آنذاك صوب بالس القريبة من حلب[١].

من بالس أرسل البرسقي إلى مسؤولي حلب وشرط عليهم ـ مسبقاً ـ تسليم قلعة حلب لنوابه كي يحتمي بها في حالة انهزامه أمام الصليبيّين، فأجابوه إلى طلبه، وسلموا القلعة إلى نوابه، وما أن استتب الأمر لهؤلاء واطمأن البرسقي إلى وجود حماية له في حالة تراجعه، حتى بدأ زحفه صوب قوات الصليبيّين التي تطوّق حلب[٢].

وصلت طلائع قوات البرسقي يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٥١٨هـ وما أن اقترب البرسقي من المدينة بقواته المنظمة حتى كان دبيس بن صدقة أول المنسحبين، حيث بدأ تراجعه صوب إحدى المواقع القريبة ناشراً أعلامه البيضاء. وأسرع الصليبيون في التحول إلى منطقة أفضل من الناحية الدفاعية، فعسكروا في جبل جيوش على الطريق

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧-٢٣٨، ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٥-٢٢٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١١-٢١٢، ابن الفرات: تاريخ (مخطوطة) ٢/ ٨٨ ابن خلدون: تاريخ سبط ٨/ ١١٣-١١٤

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧-٢٣٨.

إلى إنطاكية، وهكذا غدوا مدافعين بعد أن كانوا مهاجمين. وخرج الحلبيون إلى خيامهم فنهبوها ونالوا منها ما أرادوا، بينما اتجه قسم آخر منهم لاستقبال البرسقي لدى وصوله. وقد أدرك البرسقي ما يرمي إليه الصليبيون بانسحابهم، واتخاذهم موقفاً دفاعياً، فلم يتسرع بمهاجمتهم قبل أن يعيد تنظيم قواته من جديد خوفاً من نزول هزيمة فادحة بعساكره قد تعرض حلب للسقوط. وأرسل طلائعه الكشفية ـ بعد أن ابتعد الصليبيون ـ لرد الجيوش المتقدمة إلى معسكراتها في حلب، وقال ـ موضحاً خطته هذه: «ما يؤمننا أن يرجعوا علينا ويهلك المسلمون؟! ولكن قد كفى الله شرهم، فلندخل إلى البلد ونقوّيه وننظر إلى مصالحه، ونجمع لهم إن شاء الله ثم نخرج بعد ذلك إليهم». ومن ثم دخل البرسقي حلب وبدأ بحل مشاكلها ورفع مستواها العسكري والاقتصادي والاجتماعي، فنشر العدل الاجتماعي وأصدر مرسوماً برفع المظالم المالية والمكوس وإلغاء المصادرات، وعمت عدالته الحلبيين جميعاً بعد ما منوا به من الظلم والمصادرات ومن تسلط الجند عليهم طيلة فترة الحصار الصليبي لحلب[1].

لم يكتفِ البرسقي برفع الظلم عن السكان، بل قام بنشاط واسع لجلب المؤن والغلال إلى المدينة[2] كي يخفف من حدة الغلاء، ويقضي على الضائقة الاقتصادية التي يعانيها الحلبيون[3]. وما لبث النشاط الزراعي في منطقة حلب أن عاد إلى حالته الطبيعية، حيث قام المزارعون بزراعة منتجاتهم في أراضيهم التي شرّدوا عنها، وساعدتهم الظروف المناخية حيث

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٢٩-٢٣٠، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧-٢٣٨، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١١-٢١٢، ابن خلدون: تاريخ ٥/ ٥٣، ٢١٦-٢١٧.

(٢) ابن الوردي: تاريخ ٢/ ٣٢، ابن العديم: بغية الطلب (مخطوطة) ٤/ ٢٧٧، و: حاشية الزبدة ٢/ ٢٣٠، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١١-٢١٢، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١٣٣-١١٤.

(٣) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٢.

هطلت مقادير كبيرة من الأمطار، فأخصبت الأرض، وجاءت غلالهم ذلك الموسم من أجود الغلال وأزكاها، وبخاصة الحنطة والشعير[١]، كما عاد النشاط التجاري إلى عهده السابق[٢]. اعتماداً على ما تمتعت به المنطقة من أمن واستقرار منذ مجيء البرسقي وجلاء الصليبيّين[٣].

وهكذا استطاع البرسقي أن يحطم الطوق الذي أحاط به الصليبيون حلب، وأن يخلص هذا الموقع الهام من أخطر محنة جابهته طيلة الحروب الصليبية، وأن يعيد إليه الأمن والعدل والاستقرار، وينظم أوضاعه الاقتصادية والإدارية والاجتماعية، ويوحده مع الموصل لأول مرة منذ بدء الحروب الصليبية؛ الأمر الذي أتاح لهذا القائد، ولعماد الدين زنكي من بعده، أن يفيد من هذه الوحدة لتحقيق انتصارات عديدة ضد الصليبيين. ذلك أن حلب هي القاعدة الثانية في الشمال، بعد الموصل، وهي الحصن الأخير الذي وقف بوجه الزحف الصليبي في المنطقة باتجاه الشرق؛ إذ كانت تتمتع بمركز استراتيجي حيوي من النواحي البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية وخطوط المواصلات، وبالرغم من وقوعها بين إمارتين صليبيتين هما: الرها وإنطاكية، إلَّا أنه كان بإمكانها الاتصال بالقوى الإسلامية التركية المنتشرة في الجزيرة والفرات والأناضول وشمالي الشام، مما يعد أساساً حيوياً لاستمرار حركة الجهاد، وتحقيق أهداف حاسمة ضد العدو، هذا فضلاً عن عمق وتوثُّق الصلات الاقتصادية والجغرافية بين حلب والموصل منذ أيام الحمدانيين، ومن ثم تعتبر المدينتان تكمل إحداهما الأخرى.

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٣٠-٢٣١.

(٢) ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١١-٢١٢.

(٣) المصدر السابق ص٢١١-٢١٢، ابن العديم: بغية الطلب (مخطوطة) ٤/ ٢٧٧، حاشية الزبدة ٢/ ٢٣٠.

ولقد بدا واضحاً أنَّ اتحاد حلب مع الموصل وخضوعها لسيطرة البرسقي، أضحى يهدد كيان الصليبيين، إذ رأى البرسقي، وزنكي من بعده، في هذا الاتحاد وسيلة يستطيع بها أن يقيم إمارة مستقلة تتوارثها سلالته. ولما لم تكن الموصل وحدها كافية لتحقيق هذا الغرض نظراً لقربها من حواضر السلطنة السلجوقية، فإن الاستيلاء على حلب وبلادها يزيد في توطيد مركزه وتثبيت دعائم ملكه بما تبذله من المساعدة المادية والمالية.

وما يزيد في قيمة الاستيلاء على حلب، أنها بفضل موقعها على ثغر المسلمين ومعقلهم تجاه الفرنج، أضفت على أمير الموصل صفة المُدافع عن الإيمان ضد الكفار. كما أن قوة الشعور الإسلامي يجعل من العسير على السلطان أن يتخذ ضد أميرها إجراءً صارماً، يضاف إلى ذلك: أن البرسقي، باعتباره ممثلاً للسلطان السلجوقي، صار له السلطة الشرعية الوحيدة بين الإمارات الكثيرة وقتئذ، فصار في وسعه أن يقضي على الفوضى الفاشية بها وأن يخضعها للسلطان السلجوقي. وسرعان ما غدت الإمارة التي شكَّلها البرسقي والممتدة من نهر قويق إلى نهر دجلة، نواة لما قام بعدئذ بالشام من دولة إسلامية متحدة زمن الزنكيين والأيوبيين والمماليك. ولم يكن الفرنج، الذين وحد بينهم نظام الملكية في بيت المقدس، يواجهون قبل ذلك سوى بلاد تنازعتها في الشام قوى عديدة وإقطاعات متفرقة زادت من ضعفها.. وما حدث من إضافة حلب إلى الموصل يعتبر بدء توحيد الجبهة الإسلامية التي لابد أن تقضي في يوم من الأيام على قوة الفرنج في الشام[١].

لم يكن بوسع الملك بلدوين ـ بعد أن رأى ما حدث ـ سوى العودة إلى إنطاكية ومنها إلى بيت المقدس الذي غاب عنه مدة سنتين. إلَّا أنه لم يمكث

---

(١) العريني: الحروب الصليبية ١/ ٣٤٥، ٤٨٥-٤٨٦.

هناك زمناً طويلاً، فالبرسقي كان عنده أشد خطورة من الأراتقة، إذ كان بوسعه أن يوحّد المسلمين بشمال الشام تحت سلطانه، نظراً لكونه أميراً على الموصل وحلب، ولمساندة حكومة السلطان له، كما خضع لسلطانه طغتكين وأمير حمص. وكان البرسقي ـ بعد أن أقر الأوضاع في حلب ـ قد غادرها في مطلع عام (٥١٩هـ = ١١٢٥م) صوب تل السلطان حيث أقام ثلاثة أيام، وتقدَّم من هناك إلى شيزر فوصلها في السابع من صفر. وإذ حرص أميرها سلطان بن منقذ على أن يكون دائماً صديقاً لكل رجلٍ عظيم الأهمية، فقد سلمه رهائن الفرنج الذين كانوا قد أودعوا لدى بني منقذ ريثما يتم تنفيذ بنود المعاهدة التي كانت قد عقدت بين الأراتقة والصليبيّين.

وقد أقام البرسقي في أرض حماة أياماً لحين وصول طغتكين على رأس قواته، فرحل البرسقي على رأس جيش مؤلف من القوات الإسلامية المتحالفة، وهاجم حصن كفر طاب الذي كان بحوزة الفرنج، وتمكن من الاستيلاء عليه في الثالث من ربيع الآخر؛ حيث منحه لحليفه خيرخان الذي كان قد التحق به من حمص. ثم حاصر زردنا، فعجل الملك بلدوين بالمسير صوب الشمال، وقاد جيوش إنطاكية وطرابلس والرها التي تألفت من ألف ومئتي فارس وألفين من الرجالة لإنقاذ زردنا.

وسار المسلمون إلى عزاز التابعة لجوسلين وشدَّدوا هجومهم عليها، وتمكنوا من إحداث ثغرات في قلعتها، إلَّا أن قوات بلدوين ما لبث أن أدركتهم هناك حيث دارت (في السادس من ربيع الآخر) معركة تعد من أشد المعارك عنفاً وسفكاً للدماء في تاريخ الحروب الصليبية. وإذ استند المسلمون إلى تفوقهم العددي حاولوا الاشتباك وجهاً لوجه مع الفرنج، غير أنه كان للفرنج من التفوق بالسلاح والقوة الضاربة ما لم يطق المسلمون مقاومته، فحلت بهم هزيمة ساحقة، وقتل منهم عدد كبير جاوز الألف، واستطاع بلدوين أن يجمع من الغنائم الوفيرة التي حصل عليها مبلغ الثمانين

ألف دينار الذي كان يدين به لافتداء الرهائن. ومع أن المال كان من حق تمرتاش الأرتقي فإن البرسقي استلمه وأعاد الرهائن كي يتقوَّى به على عدوه ويعيد حشد قواته من جديد. وجرى إرسال مبلغ آخر من المال إلى شيزر لافتداء الأسرى والرهائن الذين لا زالوا محتجزين بها. وما لبثت الهدنة أن عقدت بين البرسقي والصليبيين على أن يناصفهم في الخراج المستمد من جبل السمّاق (من أعمال حلب الغربية) وبعض المواقع التي تنازعها المسلمون والفرنج، وأن يحتفظ المسلمون بكفر طاب التي كانت قد منحت لأمير حمص. ثم عاد البرسقي إلى الموصل بعد أن أبقى في حلب حامية عسكرية[١].

لم يكن الاتفاق بين البرسقي والفرنج نهائياً، نظراً لأنَّ الفرنج لم يحترموا ما اتفقوا عليه من قبل من الشروط، ويذكر ابن العديم كيف أن الفرنج أخذوا يمنعون فلاحي المسلمين ومقطعيهم من جني ثمارهم ومحاصيلهم وفق ما نصت عليه شروط الهدنة[٢].

وفي مطلع ربيع عام (٥٢٠هـ = ١١٢٦م) قام بونز أمير طرابلس بمهاجمة حصن رفنية، الذي كان هدفاً للصليبيين منذ استرده منهم طغتكين سنة (٤٩٩هـ = ١١٠٥م) والذي كان يتحكم في المنفذ المؤدي إلى البقيعة من جهة وادي نهر العاصي. ونهض بلدوين ملك بيت المقدس لمساندته، وخرج صاحبه شمس الخواص طالباً البرسقي، مستصرخاً به، فقام ولده بتسليم الحصن للفرنج في آخر صفر ٥٢٠هـ بعد حصار دام ثمانية عشر يوماً.

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٣٠-٢٣٢، ابن القلانسي: تاريخ دمشق ص٢١٠، ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٩-٢٤٠، رنسمان ٢/ ٢٧٥-٢٧٧، ويخطئ ابن العديم (زبدة ٢/ ٢١٦) في قوله بأن بلك بن بهرام هو الذي قاد معركة عزاز، يصحبه البرسقي وطغتكين. ومعلوم أن بلك قد قتل قبل هذا التاريخ بشهور عديدة.

(٢) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٣٢.

وكان الاستيلاء على هذا الحصن ذا أهمية بالغة عند الفرنج، لا لأنه كفل الأمانة والسلامة لطرابلس فحسب، بل لأنه أمَّن أيضاً طرق الاتصال بين بيت المقدس وإنطاكية.

ومن ثم توجه الفرنج إلى بلد حمص وهاجموا المناطق المحيطة به، وخربوا مزارعه. ولم يغادروا المنطقة إلا بعد أن أدركتهم القوة التي بعث بها البرسقي بقيادة ابنه مسعود لنجدة صاحب حمص. وخلال ذلك أعاد المصريون بناء أسطولهم الذي أقلع في سنة (٥٢٠هـ = ١١٢٦م) من الإسكندرية وأغار على الساحل الشامي. ولما سمع البرسقي بذلك أعد خطته على أن يقوم أثناء إغارة الأسطول المصري بهجوم من الشمال. فحشد جيشاً ضخماً وتوجه إلى إنطاكية بقصد نجدة صاحب رفنية.

والواقع أن المصريين أدركوا بعد أن حاولوا القيام بغارة على أرباض بيروت كلفتهم خسائر جسيمة، أن المدن الساحلية مشحونة بحاميات قوية، فلم يسعهم إلا العودة، أما البرسقي فقد سلك طريق منبج التي كانت قراها ومزارعها قد تعرضت دوماً لغارات جوسلين أمير الرها، فدارت المفاوضات بين البرسقي وجوسلين لعقد هدنة أخرى على أن تكون الضياع ما بين عزاز وحلب مناصفة بين الطرفين، وأن يكون القتال بينهما على غير ذلك، وقد حصل جوسلين بمقتضى هذه الهدنة على المناطق التي حازتها إنطاكية فترة من الزمن[١].

اتجه البرسقي، بعد أن أمن جانب جوسلين، صوب الأثارب وحاصرها في جمادى الآخرة ٥٢٠هـ، وأرسل فرقة من قواته إلى حصن الدير الذي يقع في أعلى شرمذا فأذعن لها، وقامت جيوشه بنهب غلال عدد من المزارع الصليبية وأرسلت إلى حلب. وعلى الرغم من أن قوات البرسقي

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٣١-٢٣٣، رنسمان ٢/ ٢٧٨-٢٧٩، ٢٨٩

استولت على السورين الخارجيين للأثارب، إلَّا أنها لم يتيسر لها الاستيلاء على المدينة لمبادرة ملك بيت المقدس لإنجادها، حيث انحاز إليه في ارتياح الأمير جوسلين. ورغبة منهما في تجنب الاشتباك مع البرسقي أرسلا إليه قائلين: «ترحل عن هذا الموقع ونتفق على ما كنا عليه في العام الخالي ونعيد رفنية عليك»[١].

ولم يشأ البرسقي ـ من جهته ـ أن يمضي في الحرب كيلا يتعرض المسلمون لما تعرضوا له من قبل في عزاز، فقرر عقد الصلح مع الصليبيين. غير أن بلدوين لم يلبث بعد أن جلا البرسقي بقواته عن الأثارب، أن أنكر ما سبق أن عرضه على البرسقي من شروط الصلح، وأهمها إعادة رفنية إلى المسلمين. بل إنه طالب ببلاد جديدة وقال: «ما نصالح إلَّا على أن تكون الأماكن التي ناصفنا فيها العام الماضي، لنا دون المسلمين»، فلم يقبل البرسقي ذلك، وأقام فترة بحلب ترددت الرسل أثناءها بين الطرفين دون أن تؤدي إلى نتيجة مقبولة من الجانبين كما أن الغارات التي نشبت بين المسلمين والصليبيين عقب ذلك لم تأت بطائل؛ فرجع بلدوين إلى القدس في رجب، وتوجه البرسقي إلى حلب يصحبه طغتكين الذي كان قد التحق به قبيل ذلك عند قنسرين، إلَّا أنه ما لبث أن مرض وأوصى إلى البرسقي قبل أن يغادر حلب متوجهاً إلى دمشق، الأمر الذي يشير إلى مدى ثقته وتقديره للبرسقي الذي لم يألُ جهداً في مقاومة الصليبيين. وبعد أن ناب البرسقي ابنه عز الدين مسعود في حلب، عاد إلى الموصل فدخلها في ذي القعدة سنة ٥٢٠هـ[٢].

ما من شك في أن هزيمة البرسقي غير المتوقعة في عزاز هي التي قلبت ميزان القوى في المنطقة، ووضعت جداراً صلباً أمام مطامح البرسقي الذي كان يأمل ـ بعد ضم حلب إلى إمارته ـ أن يحقق للمسلمين انتصارات حاسمة

---

(١) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٣٣-٢٣٤، العريني: الحروب الصليبية ١/ ٤٨٨-٤٨٩، رنسمان ٢/ ٢٨٠.

ضد الصليبيين، وأن يسعى لتهديد إماراتهم في الشمال بعد أن يوجه ضربات قوية لجيوشهم هناك. وهكذا جاءت كارثة عزاز لتنحرف بحركة البرسقي عن هدفها المرسوم. إلَّا أن قادة الصليبيين لم ينسوا ـ رغم ذلك ـ أن البرسقي سيظل يشكل خطراً على وجودهم، إذ أدركوا ما تمنحه إياه سيطرته على حلب، وقيادته لقوى المسلمين في الشام، من إمكانية واسعة لإعادة الكَرَّةِ عليهم، ومن ثم اقتنع كل من الطرفين بمنطق التهادن والمحالفات، والسعي لتجنب أي اشتباك قد يجرُّ وراءه صراعاً طويلاً، لم تكن للطرفين أية رغبة جادة في خوضه، نظراً لاعتقادهما بعدم جدواه. ولئن كان البرسقي قد أضاع الفرصة إثر هزيمة عزاز، فإنه فتح الطريق ولا ريب بضمه حلب إلى الموصل، أمام زنكي الذي جاء بعد سنتين لكي يصفِّي الحساب مع الصليبيين.

ما لبث البرسقي أن اغتيل، إثر دخوله الموصل على أيدي طائفة الحشاشين نفسها التي كانت قد اغتالت من قبل مودوداً وعدداً من زعماء الجهاد ضد الصليبيين. ومن عجب ـ يقول ابن الأثير ـ أن صاحب إنطاكية أرسل إلى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل أن يصل الخبر إليه شخصياً، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايته ـ أي: أمير إنطاكية ـ بمعرفة الأحوال الإسلامية[١]. لكن!! ألا يلقي هذا النبأ ظلاً من شكٍّ حول إمكانية حدوث اتفاق مسبق بين الحشاشين والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم، سيما وأن قتلته ربما كانوا ـ كما ذكر ابن العديم[٢] ـ قوم من أهل حماة القريبة من معاقل الصليبيين؟!

لم يبق مسعود في سدة الحكم فترة طويلة، إذ إنه ما لبث أن توفي في العام التالي إثر مرض انتابه خلال حصاره للرحبة[٣]. ولم يكن قد أعاد

(١) الكامل ١٠/ ٢٤٢.

(٢) زبدة ٢/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) انظر القسم الأول من هذا البحث للاطلاع على التفاصيل.

ـ خلال فترة حكمه القصيرة ـ أي اهتمام لقتال الصليبيين واستئناف الدور الذي كان قد سار عليه ولاة الموصل السابقون بسبب انصرافه التام إلى محاولة الاستيلاء على المواقع والحصون الشامية التابعة لطغتكين حليف أبيه، حتى إن بعض الروايات تذكر أنه كان عازماً على التوجه إلى دمشق نفسها في محاولة للاستيلاء عليها[١]. ورواية أخرى تذكر أن شكَّه في أن قَتَلة أبيه قوم من أهل حماة، جعله «يضمر للشام وأهله شراً عظيماً»، وأن وفاته ربما جاءت نتيجة سم سقاه إياه بعض أنصار غريمه طغتكين[٢].

أما أخوه الصغير الذي تولى الموصل من بعده فلم يكن سوى أداة لتحكم مملوك سابق لأبيه يدعى (الجاولي) الذي أسرع بتوجيه وفد إلى السلطان السلجوقي كي يقر الوالي الطفل على أملاك أبيه وأخيه. إلَّا أن الوفد لم يكن في الحقيقة سوى سيف ذي حدين، ولقد أطاح الحد الآخر بأنانية جاولي وعبث الصبيان، في فترة كان الصليبيون يحتشدون فيها لهجوم شامل على المعاقل الإسلامية، عندما اتفق أعضاؤه على أن يطلبوا من السلطان ترشيح قائد كفء لهذا المنصب الهام، قائد بإمكانه أن يدير أمر ولايته، ذات الموقع الخطير، بحزم وجدارة، وأن يتصدَّى للصليبيين مواصلاً المسير على ذات الطريق التي سار عليها ولاة الموصل السابقون. ولم يكن المرشح الذي أقره السلطان وباركه الخليفة، سوى عماد الدين زنكي الذي أنهى عهد ولاة الموصل، وبدأ هناك عهداً جديداً[٣].

---

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٥-٢٤٦، سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان ٨/ ١٢٦، ابن القلانسي: تاريخ ص٢١٦-٢١٧.

(٢) ابن العديم: زبدة ٢/ ٢٣٦-٢٣٧.

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٤٥-٢٤٦، وانظر القسم الأول للاطلاع على التفاصيل.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر (القديمة):

ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين علي بن محمد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ).

- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة ـ ١٩٦٣م.
- الكامل في التاريخ، ١٢ جزءاً، دار الطباعة، القاهرة ـ ١٢٩٠هـ.

البنداري: الفتح بن علي محمد الأصفهاني (ت ٦٤٣هـ).

- تاريخ دولة آل سلجوق، من إنشاء عماد الدين الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) واختصار البنداري، مطبعة الموسوعات، مصر ـ ١٩٠٠م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن بن تغري بردي الأتابكي (ت ٨٧٤ هـ).

- النجوم الزاهرة في أخبار مصر، القاهرة، ١٣ جزءاً، ط١، مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة، ١٩٢٩ ـ ١٩٥٦ م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت ٥٩٧ هـ).

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ٥ أجزاء، ط١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ـ ١٣٥٩هـ.

الحسيني: صدر الدين أبو الحسن علي بن أبي الفوارس (ت ٦٣٣ هـ).

- أخبار الدولة السلجوقية (المسمى: زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية)، تحقيق محمد إقبال، نشريات كلية فنجاب، لاهور ـ ١٩٣٣م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ).

- العبر وديوان المبتدأ والخبر (ويسمى ـ اختصاراً ـ تاريخ ابن خلدون)، ط بولاق: ٧ أجزاء، ١٢٨٤هـ: و ط، بيروت: ٦ مجلدات، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٩م.

ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ).

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٦ أجزاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ـ ١٣٦٧هـ = ١٩٤٨ م.

الذهبي: الحافظ شمس الدين محمد بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).

- دول الإسلام، جزءان: ط٢، مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند ـ ١٣٦٤هـ.
- العبر في خبر من غبر، ٤ أجزاء (الجزءان الأول والرابع تحقيق صلاح الدين المنجد، دار المطبوعات والنشر، الكويت ـ ١٩٦٠م؛ والجزءان الثاني والثالث تحقيق فؤاد السيد، مطبعة حكومة الكويت، الكويت ـ ١٩٦١م).

ابن الساعي: أبو طالب علي بن أنجب تاج الدين (ت ٦٧٤ هـ).

- الجامع المختصر في عنوان التواريخ وعيون السير، عني بنشره مصطفى جواد، المطبعة السريانية الكاثوليكية، بغداد ـ ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤ م.

■ مختصر أخبار الخلفاء (اختصر من قبل مؤرخ مجهول في أواخر سنة ٦٦٦هـ)، ط١، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر - ١٣٠٩هـ.

سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلي التركي (ت ٦٥٤هـ).

■ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جزءان، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند - (١٣٧٠هـ = ١٩٥١م).

السيوطي: جلال الدين بن عبدالرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ).

■ تاريخ الخلفاء، ط٢، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة، مصر - ١٣٧٨هـ = ١٩٥٩ م.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (ت ٦٦٥ هـ).

■ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة - ١٩٥٦ م.

ابن الشحنة: أبو الوليد محمد (ت ٨٨٣ هـ).

■ روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر، منشور بحاشية الكامل لابن الأثير، في الأجزاء،٧،٨،٩، دار الطباعة، القاهرة - ١٢٩٠ هـ.

ابن الشحنة: محمد الحلبي الحنفي (ت ٩٢١ هـ).

■ الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تعليق يوسف بن إليان سركيس الدمشقي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت - ١٩٠٩ م.

ابن شداد : عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم (ت ٦٨٤ هـ).

- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، قسم الجزيرة: مخطوطة (أكسفورد رقم Bodi. Marsh 33)؛ قسم حلب: تحقيق دومينيك سورديل، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٥٣ م؛ قسم لبنان والأردن وفلسطين: تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٦٢ م.

ابن العبري : غريغوريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ).

- تاريخ مختصر الدول، تحقيق أنطوان صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ـ ١٩٥٨ م.

ابن العديم: كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت ٦٦٠ هـ).

- بغية الطلب في تاريخ حلب، ٣ مجلدات (مخطوطة)، دار الكتب، القاهرة، رقم ١٥٦٦.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، جزءان، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق ـ ١٩٥٤ م.

ابن العماد: أبو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ).

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، مكتبة القدسي، القاهرة ـ ١٣٥٠ هـ

الغزي : كامل بن حسين بالي الحلبي (ت ١٢٧١ هـ).

- نهر الذهب في تاريخ حلب، جزءان، المطبعة المارونية، حلب ـ ١٣٤٢ هـ

الفارقي : أحمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت ٥٧٢ هـ).

- تاريخ آمد وميافارقين، (مخطوطة) رقم (Oxford ,6, 310)، نشر قسمها الأول: بدوي عبد اللطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة ـ ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م.

أبو الفدا : الملك المؤيد إسماعيل بن عمر (ت ٧٣٢ هـ).

- المختصر في أخبار البشر، مجلدان، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم الحنفي (ت ٩٠٧ هـ).

- تاريخ الدول والملوك، ١٨ مجلداً (مخطوطة)، دار الكتب في القاهرة، رقم ٣١٩٧.

ابن القلانسي: أبو يعلى حمزة (ت ٥٥٥ هـ).

- ذيل تاريخ دمشق، تحقيق آمدروز، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ـ ١٩٠٨ م.

ابن كثير : إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ).

- البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ جزءاً، مطبعة السعادة، القاهرة ـ ١٩٣٢ هـ.

المقريزي : تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ).

- السلوك لمعرفة دول الملوك، ٦ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة ـ ١٩٣٦ م.

ابن منقذ : أسامة بن مرشد الكناني الشيرازي (ت ٥٨٤ هـ).

- كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتّي، مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة ـ ١٩٣٠ هـ.

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ).

■ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٣ أجزاء، تحقيق جمال الدين الشيال، جامعة فؤاد الأول، القاهرة ـ ١٩٥٣م.

ابن الوردي : زين الدين عمر (ت ٧٥٠ هـ).

■ تتمة المختصر في تاريخ البشر، جزءان، المطبعة الوهبية، القاهرة ـ ١٢٨٥هـ.

ياقوت الحموي: شهاب الدين عبد الله الحموى الرومي البغدادي (ت ٦٢٦ هـ).

■ معجم البلدان: ٦ أجزاء، تحقيق وستنفلد، ليبزك - ١٨٦٦م.

المراجع الحديثة

المراجع ـ العربية:

جوزي: بندلي

- من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، دار الروائع، بيروت.

حبشي : حسن.

- أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، مترجم عن مؤلف مجهول، دار الفكر العربي، القاهرة ـ ١٩٥٨م.

خليل : عماد الدين.

- الإمارت الأرتقية في الجزيرة والشام، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ ١٩٨٠م، عماد الدين زنكي، الدار العلمية، بيروت ـ ١٩٧١ م.

رنسمان : ستيفن.

- تاريخ الحروب الصليبية، ٣ أجزاء، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت ـ ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨م.

زامباور : إدوارد فون.

- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، جزءان، ترجمة وإخراج زكي محمد حسن ورفاقه، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة ـ ١٩٥١م.

عاشور : سعيد عبد الفتاح.

- الحركة الصليبية، جزءان، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة ـ ١٩٦٣م.

العريني : السيد الباز.

- الشرق الأوسط والحروب الصليبية، الجزء الأول، دار النهضة العربية، القاهرة ـ ١٩٦٣م.

مجلة سومر : المجلة العشرون، سنة ١٩٦٤م، بغداد.

المراجع ـ المترجمة:

Cahen : Claude

La Syrie do Nord a L'Epoque des Criosades, PARIS, 1940

Chalandon: F.

Essai sur La Regne dAlexis Comnene, Paris, 1900.

Grousset : Rene.

Histoire des Corsades et du Royaune France de Jerusalem , 3 vols , Paris , 1934-1936 .

Ostorgorosky :G

History of the Byzantine state , oxford , 1956.

Receuil des Histreins des Croisades, bub . by : Academie des Inscriptions et Belles Lettres (Albert d Aix , Guillaum de Tyr ,Mathieu dEdessa , Michel le Syrin), Paris, 1841-1906.

Runciman Steven .

Ahistory of the crusades , 3 vols . cambridge, 1957.

Setton : K enneth . M.

Ahistory fo the Crusades , vol . I, Pennsylvania, 1955-1958.

1- Gibb: A. R .

Zengi and the fall of Edessa .

2- L ewis :B .

The Ismailites and the Assassins .

3- Fink : H . S .

The Foundation of the Latin States : 1099-1118.

4- Ncholson : R.L .

The Grouth of Latin States :1118-1144.

Stevenson :W . B.

The Crusaders in the East , Cambridge , 1907 .

Tanner : J.R.(ED) .

The Cambridge Medival History , P lanned by J.B. Buy , ed .

by J. R . Tanners and Others , Cambridge univ ., 1929 .

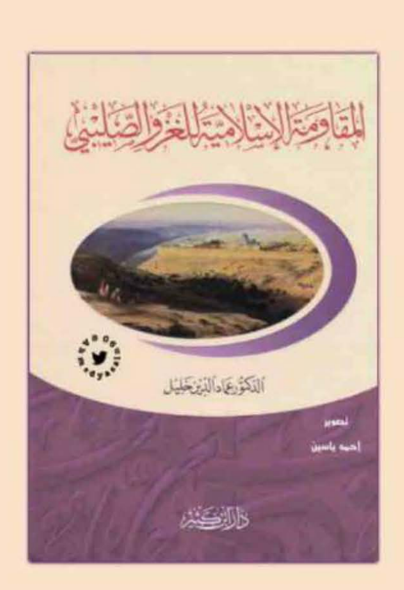
Vasiliev : A.A .

History of the Byzantine Empire , 2 vols ., Madison 1961 .

فهرس الموضوعات




المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي
الدكتور عماد الدين خليل
تصوير
أحمد ياسين
دار ابن كثير